دار العين للنشر

بيوت عارية

مصطفى عبد ربه

رواية

fb/mashro3pdf

بيوت عارية

رواية

مصطفى عبد ربه

الطبعة الأولى / ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

أنجزت في إطار "محترف نجوى بركات" لكتابة الرواية

الغلاف:

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣٧٩٦ /٢٠١٦

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 393 – 9

fb/mashro3pdf

بيوت عارية

رواية

مصطفى عبد ربه

دار العين للنشر

fb/mashro3pdf

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد ربه، مصطفى

بيوت عارية: رواية/ مصطفى عبد ربه.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٧

ص؛ سم.

تدمك: ٩ ٣٩٣ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٣٧٩٦ / ٢٠١٦

fb/mashro3pdf

إهداء

إلى وفاء

وإلهام

وفيروز

وإلى الأصدقاء، واحدًا واحدًا

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

سيمحو النسيم آثار أقدامنا على الرمال
ترى من سوف يخبر الأبدية أننا مشينا مرة ههنا؟

[من أغاني قبائل البوشمن]

غَنَّيْتُ كي أَزِنَ المدى المهدُورَ
في وَجَع الحمامةِ،
لا لأَشْرَحَ ما يقولُ اللهُ للإنسان

[محمود درويش - الجدارية]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

خرجت الثعابين من أحراش البوص هاربة لا تلوي على شيء، واختبأت في البيوت القريبة. فزع الناس وكادوا يهربون من بيوتهم لولا استعانتهم بالرفاعيّة الذين قاموا بعروض حية في الشارع كي يرى الجميع فضلهم وقدراتهم.

لثموا الثعابين، وضعوها في أكمامهم، ورقصت الأفاعي على طرقات الدفوف. خلّع الرفاعية أنيابها، وشربوا السمّ. كانوا يقرأون التعاويذ على الثعبان، فتشل حركته، وفي النهاية يُقتَل بضربة واحدة.

كانت الأفاعي تعيش آمنة في أحراش البوص، حتى قررت الحكومة بناء مستشفى جديد. عبثت الريح في الأحراش على أطراف المدينة أمدًا طويلًا، تحني أعواد البوص التي ارتفعت أكثر من ثلاثة أمتار، حاملة التراب والقمامة إلى مجرى الترعة الجاف. اتخذت أسراب العصافير وأبي قردان من فروع الصفصاف شبه الميتة مأوىً لها.

fb/mashro3pdf

استغلت الأفاعي شعر الصفصاف الكثيف وانحناء أغصانه بفعل الجفاف والريح، وغافلت الطيور الساذجة.

ازدحمت المدينة، وانتشرت السيارات وزادت عوادمها. وكان السل والالتهاب الرئوي يحصدان أرواحًا كثيرة كل عام، وخاصة في الشتاء. أراد المسئولون بناء المستشفى في مكان بعيد، كي يستنشق المرضى هواءً نظيفًا خاليًا من العوادم والتلوث، وكي يحمل الناس أمواتهم بهدوء، بعيدًا عن الأعين.

وعلى غير العادة، سار كل شيء بسرعة. جُرفت الأرض وأزيل جزء كبير من أحراش البوص، وبُنيت المستشفى على مساحة واسعة. مبنى كبير من خمسة طوابق فيه عنابر المرضى وغرف العزل، والاستقبال في الطابق الأرضي، يقابله مبنى آخر من ثلاثة طوابق لسكن الأطباء والتمريض ومكاتب الموظفين. وعلى مقربة، مبنى صغير من طابقين لم تعلق عليه أية لافتة إذ يعرف الجميع أنه مبنى المشرحة. أحاطوا كل هذا بسور منخفض، وأشجار فيكس قصيرة قبيحة.

وبعد تجهيز المستشفى، وقبل أن يأتي المرضى، بَنَتْ الحكومة في الجوار مدرسة ثانوية زراعية أكلت ما تبقى من أحراش البوص، فظهر مجرى الترعة الجاف واسعًا عميقًا مليئًا بالقمامة، وظهر الطين الأسود يابسًا متشققًا.

fb/mashro3pdf

استمر بناء المدرسة فترة طويلة على عكس المستشفى، وفي أيام الخماسين والشتاء، كانت الريح القوية تحمل التراب الأسود اليابس إلى رئات المرضى الملتهبة المريضة داخل المستشفى.

ثم عرضت الدولة كل الأراضي المواجهة للمدرسة والمستشفى للبيع، في محاولة منها لتعمير هذا الجزء النائي. توجس الناس من السكن جوار مستشفى للأمراض الصدرية، مليء بمرضى السل والالتهاب الرئوي. ظلت الأراضي المعروضة للبيع لا تجد مشترين، فخفّض المسئولون أسعار البيع حتى صارت أقرب لهبة مجانية.

في هذه الأثناء، كان عبود الصايح قد وثّق صلاته بالمدينة، وجد لنفسه مكانًا في براحها بعدما هرب من ضيق القرية. اشترى مقهىً صغيرًا في شارع "الصاغة" الحيوي، جوار جامع "السنجق"، واستأجر شقة كبيرة في شارع الحسينية القريب، سكنها مع زوجته وابنيه.

سمع بالأراضي المعروضة للبيع، وعرف بتخوف الناس من السكن جوار المستشفى، فأدرك أن إحجامهم قد يكون ذا عون له، فقط عليه أن يذهب كي يرى بنفسه.

ترك المقهى لصبيانه ذات صباح، وذهب سيرًا. وكلما اقترب، خفتت الأصوات وزادت الأرض تعرجًا وخشونة. وقف على بداية

fb/mashro3pdf

الطريق الترابي الطويل، أسوار المعسكر الإنجليزي القديم عن يمينه، ويرى حركة السير في شارع "عبد السلام عارف" البعيد.

ورغم أنه لم يكن هيّابًا، إلا أن رجفة ما استبدت به، نفضها عن نفسه وضغط على عضلات فكيه بقوة، تذكر طرقات قريته ليلًا وما كان يفعله قبل عشرين عامًا. تذكر قفزه من فوق الجميزة العالية إلى الترعة، وما جعل صيته يلمع في القرية حقًا، عندما تمدد تحت عجلات القطار، وحرص ساعتها أن يراه أصدقاؤه جميعًا.

نظر "عبود" من فوق سور المستشفى المنخفض فلم ير شيئًا ذا بال. ظن أن المستشفى خالٍ لولا أن رأى ممرضة تعبر من مبنى إلى آخر. جال بعينيه يمينًا ويسارًا، درس المنطقة جيدًا، ثم عاد إلى المقهى.

فكر كثيرًا، قلّب الأمر من جميع الأوجه، تقصّى حتى وصل إلى كافة المعلومات التي يريد، ومن خلال علاقاته المتعددة المتشعبة وجلسات الحشيش اليومية، وصل إلى الموظفين المختصين. مائتا متر هي كل ما يريد، وعلى رأس الشارع، المواجهة للمدرسة مباشرة.

جهــز أوراقه واتبــع التعليمات، دفع ما يلــزم لموظفي الحيّ وضرب على الأمر كتمانًا كبيرًا حتى أن زوجته لم تعرف شــيئًا. وبعد أشهر تمّ له ما أراد. وحينها فكر في أن يترك قطعة الأرض

fb/mashro3pdf

حينًا حتى يرتفع سعرها، ثم يعرضها للبيع، وبهامش الربح، يجدد مقهاه، أو يبيعه ويشـــتري مقهى أكبر في نفس المنطقة.

في هذه الفترة، كان صالح أبو العز قد ترك بيت أبيه في كفر صقر بعد مشادة وخلاف كبير. تصدى له جميع إخوته وأغاروا قلب الأب لإقصاء أخيهم الأكبر عن منصب العمدة ولحرمانه من حقه في الميراث كي يتوزع بينهم.

أدرك صالح الفخ متأخرًا، اعتذر وعاد نادمًا. فشلت محاولات الصلح رغم توسط الكثيرين، لكن أباه كان قد اتخذ قرارًا لا رجعة فيه. اعترى صالح غضبٌ عارمٌ، فباع عشرة أفدنة، هي كل نصيبه من ميراث أمه لأحد أعداء أبيه، ثم ترك القرية إلى الأبد.

وضع كل ثروته في البنك، وأقام فترة طويلة في قرية قريبة من المدينة، عند صديق مقرب يعرفه منذ أيام الحرب والتجنيد. قال إنّه ترك البيت بشكل مؤقت وسوف يعود قريبًا بعد أن تهدأ النفوس. ولم يخبر صديقه بما حدث.

عرف صالح بالأراضي التي عرضتها الدولة للبيع في المدينة الواقعة على بعد مرمى حجر، فكر في شراء الأرض وبناء بيت دون حاجة لأهله. وبمساعدة صديقه أنهى الإجراءات وحصل على ما يريد. قطعة أرض بمساحة 200 متر، وشرع في بناء البيت بعد أسابيع قليلة، وكان بيته هو أول بيت وضع للناس في المنطقة كلها.

fb/mashro3pdf

لم يستطع صالح أن يتزوج من امرأة ذات حسب ونسب، فهو بلا عائلة، رغم أصله الطيب، فتزوج من ابنة فلاح فقير. وبعدما أتم بناء البيت، كان يقف على سطحه فيرى المساحات الخالية، يرى المستشفى والمدرسة التي لم تكتمل بعد، يرى السيارات التي تسير في شارع عبد السلام عارف البعيد، ومقابر الأقباط ذات السور العالي.

وفي يوم ما وعبود الصايح ذاهب مع البنائين والحمالين كي يبني سورًا حول أرضه، بزغت في رأسه فكرة غيرت كل خططه القديمة. رأى المنطقة وقد امتلأت بالبيوت والعمال والأُجراء، ولابد أنهم يريدون الشاي والقهوة والمعسل، وماءً باردًا وتكعيبة تظللهم. لم يتردد، فأمر العمال برفع السقف.

اشترى أكوابًا وملاعق وأراجيل ودخانًا، اشترى كل ما يحتاجه المقهى الصغير المرتجل. أخذ واحدًا من صبيانه وشرع في العمل فورا. كانت زوجته تحل محله في المقهى القديم ساعات الصباح، حتى يعود بعد العصر بقليل حين يرحل البناءون وعمال المعمار.

استمر على هذا الحال عدة شهور، ثم قرر أن يبني بيتًا بدورين، ليكون المقهى في الدور الأرضي. وفي عصر يوم صيفي حار، وهو جالس يتكلم مع العمال في المقهى، نصحه أحدهم بالتقدم بطلب إلى الحي ليكون الشارع باسمه. فتخيل نفسه جالسًا في المقهى،

fb/mashro3pdf

بالجلباب البلدي، يدخن النارجيلة، يحصي الماركات ويباشر العمل، يحيّيه هذا ويسلم على ذاك، واللافتة معلقة على جدار بيته مكتوب عليها شارع "عبود الصايح".

ولما ذهب صالح أبو العز إلى مبنى الحي ليسمي الشارع باسمه، عرف أن عبود قد سبقه فاستشاط غضبًا، سب الموظفين فطردوه. دخل صالح المقهى هائجًا مضطربًا، فرأى عبود جالسًا يدخن النارجيلة باسترخاء والعمال من حوله. صرخ فيه وسبه، وحال العمال بينهما، ودفعوا صالح أبو العز بعيدًا ناحية بيته. وظل مؤرقًا لعدة أيام يفكر في الانتقام وفي استرجاع حقه حتى يطلق اسمه على الشارع.

فكر صالح أن يستعين بصديقه لضرب غريمه وهدم المقهى على رأسه، لكنه تراجع لما فكر قليلًا في عواقب الأمور، فلابد أن الصايح سيرد، وهو وحيد غريب ما له من سند.

ظل صالح أبو العز يراقب القادمين إلى الشارع، يرى البيوت تزداد وتعلو، فيمتلئ قلبه فرحة وأملًا، فقد يجد فيهم من يكون له صديقًا وعونًا. أعماه الغضب لما اتخذ عبود رفاقًا وصحبة من العمال ومن الساكنين الجدد. فأبلغ الشرطة وحرر محضرًا ضده، حيث اتهمه بأنه يقدم الحشيش لرواد المقهى.

أُغلق المقهى لعدة أيام وقُبض على عبود، لكنه خرج بعد فترة

fb/mashro3pdf

قصيرة، وظل صالح خائفًا من انتقامه. يحاذر في سيره، يغلق بوابة البيت بإحكام، امتنع عن تناول الشاي وقراءة الجريدة في الشرفة عصر كل يوم، خوفًا من أن يطلق عليه عبود الرصاص.

لم يحدث شيء ولم يأت الرجل بأية ردة فعل. هذا السكون الذي أخاف صالح أكثر. ظنّ أن عبود يدبر لانتقام رهيب يحتاج تخطيطا طويلا. واستمر صالح على هذا الحال شهورًا، حتى جاءت مولودته الأولى، فنسي كل شيء.

وبعد أن كان بيت أبي العز أعلى بيت في المنطقة، بُنيت على ناصية الشارع بناية مرتفعة من عشرة أدوار، فأكل الغضب والحنق قلب صالح أكثر من ذي قبل. وأشاع بين الجيران الذين يلتقيهم بعد صلاة الجمعة، أن هذه البناية إلى زوال عما قريب ولابد أن تنهار. فالأرض الطينية لن تحتمل كل هذه الطوابق، ولا يعرف كيف يسكن الحمقى في بناية آيلة للسقوط.

ســكان هذه البناية كانوا مختلفين عن أهل الحي القلائل في ذلك الحين، يركبون الســيارات، وبعض نســائهم متبرجات، وأغلبهم يعملون فــي الخليج ولا يأتون إلا في فترة الإجازة الصيفية، لذا لم يعتبرهم أهل الحي من سكان المنطقة.

ذات يوم رأى صالح أبو العز رجلا يدخل الشارع المليء بالحفر والتعرجات، بسيارة فيات فضية، وجواره سيدة مسنة. نزل الرجل

fb/mashro3pdf

من السيارة ووقف أمام قطعة أرض خالية. كان يرتدي بذلة كحلية ونظارة شمسية، ويكلم السيدة المسنة الجالسة في السيارة، وفهم صالح أنها أمه.

عاين الرجل ذو البدلة الكحلية قطعة الأرض عن قرب، ثم رحل، ثم عاد بعد عدة أسابيع ومعه عمال البناء. راقبه صالح لأيام، وذات مرة نزل إليه بكرسي خشبي وزجاجة ماء بارد. عرّفه بنفسه وعرض خدماته. عرف أنه سيبني بيتًا يسكن فيه مع والدته وأخته. وحدث نفسه بأن هذا الرجل ابن الأصول لابد وأن يكون صديقه، هكذا حدث صالح نفسه.

صار ينزل إليه كل يوم بالكرسي الخشبي وزجاجة الماء، وبعدما توطدت العلاقة، نزل بكرسيين وزجاجتي ماء ومنضدة صغيرة، يجالسه حتى ينتهي العمل قرابة العصر.

عرف أنه مهندس عائد من العراق حديثًا، وقد وضع تصميم البيت بنفسه. ولما اكتشف نشاطه في الحزب الحاكم والمجلس المحلي، تحمّس وحكى قصة النزاع على اسم الشارع وما فعله الصايح، فوعده الرجل أنه عندما ينتهي من بناء البيت سوف يبحث مشكلته مع المسئولين. شكره صالح وقد امتلأ حبورًا وسعادة، لأنه وجد ضالته أخيرًا.

توافد الناس وتكاثروا في الشارع الضيق الذي لا يتعدى عرضه

fb/mashro3pdf

الأمتار الستة ويزيد طوله عن الثلاثمائة متر بقليل. جاء القصّاص تاجر الألبان الأسمر ذو العينين الضيقتين مثل اليابانيين، وعبد المنعم مدرس اللغة العربية ذو الصوت الأجش، جاء أبو فوزي وزوجته، وجاءت سلوى علام الأرملة وأبناؤها. جاء حمودة الطوبجي، وأبو وليد الذي أصر على عدم اقتلاع الشجرة من أرضه وبنى حولها فناءً، ثم مات بعد أن وضع الأساس بأسبوع واحد. جاء محمد سلام مع أخيه، وجاء آل شومان، وأحمد الحُطيبي، والدمرداش الصعيدي شديد السمرة، وجاء حامد جمعة تاجر الفواكه الذي بنى بيته بين بيت المهندس يوسف عاشور وبيت الدمرداش.

fb/mashro3pdf

على الناصية، وقف الأصدقاء ينتظرون هاني صامتين. حاول البرد أن يطرد النعاس من عيونهم بلا فائدة. وضع أشرف ابن زكريا الصايح يديه فوق الفحم المشتعل أمام المقهى يتلمس حرارته، وفي النهاية قرر البقاء جواره. تبعه الآخرون ما عدا حسن ابن صالح أبو العز الذي رفض في البدء الاقتراب، إلى أن ناداه سعد، فانضم إليهم.

دائما هاني هو آخر الواصلين، لم يستنكروا انتظاره إلا بعد أن ظهرت سارة. عبرت أمامهم في طريقها إلى المدرسة، فتركوا هاني الذي لحق بهم جريا. صاروا يضبطون حركتهم على ميعادها، يتبعونها حتى تصل المدرسة، يطلقون الدعابات، فتشيح بوجهها حينًا، وتضحك حينًا، ويكاد من أضحكها أن يذهب إلى المدرسة طائرًا.

حين يرونها، غالبًا ما يفتعل هاني الصراع مع أصدقائه إثباتًا

fb/mashro3pdf

لقوته وسطوته. يتغلب على أشرف وحسن دائمًا، ويسير أحمد وسعد وراءهم، رافضيْن الانجراف خلفه.

كان أحمد مشغولًا بشعرها البني المعقوص كذيل حصان، يختلج قلبه كلما تحرك يمينًا ويسارًا. وفي ميدان الشيخ حسانين الواسع، ترتمي الشمس القادمة من كل مكان على شعرها فيلمع. يلسع البرد أحمد فيرتجف، يجتاحه إحساس غامض عندما يرى عضلات ساقيها تنقبض وتتكور وهي تصعد الرصيف، أحب توزيع النمش الدقيق تحت عينيها وفوق أنفها.

تركوا سارة وأختها أمام باب المدرسة ومضوا، وصلوا المدرسة في الثامنة تماما، انقبض قلب أحمد لمرأى البوابة الخضراء الضخمة. وكعادته تحرش هاني بأفراد الشرطة المدرسية الواقفين على البوابة، كل صباح يسبهم أو يفتعل معهم شجارًا، يخافونه ورغم أنهم أكبر منه بعامين.

ذهب كلٌ إلى طابور صفه. وقف أحمد في مؤخرة الطابور ليكون بعيدًا عن الأعين. اختلس النظرات إلى زينب حلمي، مدرسة المواد الاجتماعية، الواقفة أمام الطابور. اختلط في شعرها الأسودُ بالأصفر وملأ جفونها الكحل. ملابسها الضيقة تثير فيه ذات الشعور الغامض. أدى التمارين وردد الأناشيد بتكاسل. سمع ما يقال في الإذاعة دون اهتمام، ثم انتهى الطابور ودخلوا الفصول.

fb/mashro3pdf

وضع حقيبته على الأرض، أخرج كتاب المواد الاجتماعية، فتح الكشكول ذا الغلاف الأحمر، وأعاد النظر في فروضه المدرسية، يخاف أن تكتشف زينب خطأ ما.

صوتها الرفيع العالي وطريقتها العصبية نافدة الصبر، تجبراه على ألا يشرد كثيرًا. طرحت زينب الأسئلة، واختارت الطلاب عشوائيًا. أشارت إليه ونادت باسمه، ورغم سهولة السؤال تعثر أحمد قليلًا في الإجابة. كان ينظر إلى ثدييها النافرين، ولما وقفت جواره، اشتم عطرها السكريّ الممزوج بالعرق. أبعد عينيه وأجاب، سألته سؤالًا آخر، فأجاب بسرعة ثم جلس، والدم يندفع إلى وجنتيه وقلبه يدق بعنف. أحب هذا الشعور الذي يخبُّ في شراييه، أحب تلك اللذة القوية الجامحة. ورغم أنه لم يفهمها، لكنه أحبها.

في الحصة التالية دخل الأستاذ مختار، مدرس اللغة الإنجليزية. تعجبه طريقة شرحه، ويحفظ الكلمات بسرعة وسهولة، رغم كرهه للقواعد التي يدرسها دون رغبة حقيقية. استغرق أحمد في سماع الشرح وحل الأسئلة.

وفي الحصة الثالثة دخل السيد تاج الدين، مدرس الرياضيات، حاملًا المسطرة الخشبية الطويلة والفرجار. أطلق زفرة حارة. تضايقه لهجة المدرس الريفية الفجة وطريقة شرحه المملة. شرد أحمد طويلًا، حتى تمر سريعًا حصة الرياضيات التي يكرهها.

fb/mashro3pdf

دق الجرس معلنًا مجيء الفسحة. خرج أحمد والتقى بأصحابه. يتجنب الألعاب الخشنة، ويفضل الركض، يظل يركض ويركض ويركض، يلف الفناء كله، يناور من يجري خلفه حتى يسقط في الأسر، أو يسقط على الأرض من فرط التعب. دق الجرس للمرة الثانية، فذهب أحمد إلى الحمام، غسل وجهه وشعره، وعاد إلى الصف منهكًا.

عند عودته من المدرسة رأى أحمد سيارة أبيه واقفة تحت البيت. فتح البوابة الحديدية، احتكت حقيبته بالحائط عند دوران السلم، فالتصقت بها خيوط العنكبوت، غمره شعور بالاشمئزاز، وعند وصوله إلى الدور الثاني، حمد اللـه أن باب شقة عمته مغلق. سمع صوت التلفاز آتيا من شقتهم، فعرف أن الباب مفتوح. وضع حقيبته على الأرض، كان أبوه جالسًا يشاهد التلفاز، جلس جواره لاهثا. سأله أبوه عن أحوال المدرسة، فأجاب أن كل شيء على ما يرام، وقام يغير ملابسه حتى يتفادى المزيد من الأسئلة.

سألته أخته الصغيرة وهي جالسة على السرير تلعب بعرائسها:

- ماما جت؟

- لأ لسه. تعالي نبص عليها من البلكونة

وقفا على الكرسي حتى يتمكنا من النظر من فوق سور الشرفة.

fb/mashro3pdf

تأتي أمهما مبكرًا يوم الخميس. رآها آتية من بعيد، تحمل أكياسًا بلاستيكية كثيرة، فنزل جريًا إلى الشارع.

أعطته أمه كيسًا خفيفًا فطلب كيسًا أثقل. تحامل على نفسه، حتى يثبت لها أنه قد صار رجلًا يعتمد عليه. فيما كانت أمه تلقي السلام على النسوة العابرات، والجالسات على عتبات بيوتهن.

خرجت لها أم فوزي من المحل مرحبة. تبادلتا القبلات والسؤال عن الأحوال. ربتت أم فوزي على رأس أحمد، أثنت عليه، ودعت اللـه أن يبقيه لها ويجعله وأخته بخير دائما، كان واقفا جوار أمه، وقد انغرست يد الأكياس الثقيلة بلحم كفه.

رأى سعد في الشباك، فأكدّ على ميعاد اللعب، وقال إنّ أشرف قد اشترى كرة جديدة سوف يلعبون بها اليوم. حملت أمه الأكياس، وألقت السلام على أم عصام، وهي تمضي ناحية البيت.

راح أحمد يتكلم مع أمه ويحكي لها عما حدث في المدرسة، عن إجاباته على كل الأسئلة واستيائه من الرياضيات ومدرسها. كان بين كل درجة وأخرى، ينظر إلى وجه أمه الأسمر وقد اختلط فيه العرق بالابتسامة.

وعندما وصلا إلى شقة عمته، تغيّر وجه أمه، وصمتا تماما. ثم حدث ما يحدث كل يوم، فما أن سمعت عمته صوت خشخشة

fb/mashro3pdf

الأكياس البلاستيكية وصوت أقدامهما، حتى بدأت السباب وكأنها تسب إحدى بناتها. كان أحمد مدركًا تمامًا أن كل هذا موجه إلى أمه، لكنه لم يعرف لماذا تسب عمته أمه.

قفزت أخته إلى حضن أمه، تركهما أحمد على الباب وحمل الأكياس إلى المطبخ، ثم تمدد على الأريكة يشاهد التلفاز، ريثما تجهز أمه الغداء. سمع صوت مروة من الشباك المطل على المنور تخاطب أمها. اتجه إلى باب الشقة بهدوء، وصعد الدرجات القليلة إلى السطح جريًا.

رأى مروة على السطح الملاصق تبحث عن شيء ما. حركت بطة جناحيها بقوة، فجرت مروة خائفة إلى الجهة الأخرى وصرخت. ضحك أحمد بصوت عال، فنظرت إليه غاضبة وسألته عما يضحكه. ينتهز هذه الفرص كي يكلمها، ويسألها عن أي شيء، ثم اكتشف أن الحديث عن المدرسة يفتح مجالًا أكبر. لم يكن الكلام قد بدأ بعد حتى نادته أمه، فنزل جريًا.

جلس إلى مائدة الغداء، يأكلون صامتين، لا صوت إلا صوت ارتطام الملاعق بالأطباق، وتنبيهات أمه المتكررة كي يأكل ببطء، دون أي استجابة منه، يريد أن ينتهي سريعًا كي ينزل الشارع.

وقف أحمد ينتظر سعد تحت البيت. دعته أم فوزي أن ينتظره في المحل، فجلس على الكرسي نافد الصبر، يهز قدميه ويشمّ روائح

fb/mashro3pdf

البصل والكراث والخل، وأم فوزي جالسة في باطن المحل المظلم تقشر الباذنجان وتجهز كميات كبيرة من الفول وعجينة الفلافل للغد، حيث يكثر الزبائن يوم الجمعة بالذات.

سألته عن أحوال المدرسة دون أن تتوقف عن العمل أو عن الابتسام، حذرته من مغبة الشغب، ودعت له ولسعد حفيدها. ثم طلبت منه أن يساعدها في حمل الطست النحاسي العميق الممتلئ بحبات الفول، ليضعاه تحت صنبور المياه.

رأى أحمد أم عصام في جلستها شبه الدائمة على عتبة البيت. بدينة بيضاء، لا تغير جلستها إلا قليلًا، تقوم بصعوبة، وكثيرًا ما تطلب مساعدة أحد العابرين كي يعينها على القيام. لاحظت أم فوزي نظراته التي طالت بعض الشيء، فقالت:

- غلبانة، من ساعة ما ابنها مات وحالها اتبدَل، مات في عز شبابه، قالتها وأغلقت الصنبور.

دخل سعد المحل، أخذ شريحة جزر، ثم مضى مع أحمد يناديان على بقية الرفاق.

جاء أشرف الصايح مختالًا بكرته الجديدة، أمسكها سعد وضغط على جانبيها بيديه، خطفها هاني وركلها في الحائط عدة مرات، حاول حسن أن يخطفها، فتشاجر معه أشرف، ومنعه من اللعب معهم، فتلك كرته، ومن حقه أن يقرر من يلعب بها ومن لا يلعب.

fb/mashro3pdf

دخلا في شجار معتاد، فجلس أحمد على الرصيف يعيد لصق شريط حذائه الرياضي. تدخّل هاني وحسم الموقف معلنًا أنهما لن يلعبا بالكرة أصلًا. ولما توقفا عن العراك، نادى أحمد وقام خمستهم بوضع أيديهم مقلوبة فوق بعضها، لتقرر القرعة من سيكون حارس المرمى المشترك للفريقين.

قلب أشرف يده وأصبح هو المختلف الوحيد، ولابد أن يقف حارس مرمى. رفض وغضب وخبط بقدميه في الأرض وقال إنّه سيأخذ الكرة ويرحل. ضاق الجميع به، لكنهم كرروا القرعة. المرة الثانية كانت من نصيب حسن، رفض أيضا وكاد أن يرحل، أقنعه هاني أنها المرة الوحيدة التي سيقف فيها حارس مرمى وبعد انتهاء الأهداف الستة، سوف يشترك في اللعب.

جلبوا قطعة قرميد وضعوها على بعد أربع ياردات من عامود الإنارة، وشكلوا فريقين. أحمد وسعد في فريق، وهاني وأشرف في الفريق الآخر.

ما كادوا يبدأون المباراة، حتى تعالى صوت أنور العطار الجالس أمام دكانه. هددهم أن الكرة لو جاءت عند محله سوف يمزقها. وضعوا لأنفسهم حدودا وهمية، ورغم أن فاروق الاستورجي كان بعيدًا عنهم بمسافة كبيرة، فقد تعالى صوته هو الآخر قائلا إن التراب يلوث قطع الأثاث ويلتصق بالدهان الطري.

fb/mashro3pdf

كانوا محاصرين تماما، ولا يستطيعون الذهاب إلى أول الشارع خوفًا من السيارات، وخوفًا من متولي الحداد، وخوفًا من أن يكسروا الزجاج على باب مقهى الصايح، ومن خيول عبد الباقي المكاري التي يحممها كل يوم أمام البيت في هذا الميعاد.

كان هاني قد اقترح عليهم قبل ذلك أن يدخلوا مدرسة الزراعة الواسعة، لكنهم خافوا. ادّعى أنه ذهب للعب عند مقابر الأقباط الواقعة عند نهاية الشارع. فكروا في كلامه كثيرًا، لكن ما يحكيه الجميع عن صراخ الموتى المُعذبين الآتي من المقابر ليلًا، وعن الشياطين القابعة في مدرسة الزراعة، جعلتهم يفكرون ألف مرة قبل أن يوافقوا، فهذه الأرواح والشياطين التي تحاصر الشارع من جهتين، قد تخرج بكل سهولة ولن يصدها أحد.

جذب الإمام الفارسي كرسيًا وجلس أمام المقهى. رآه زكريا فجاء مُرحبًا، ثم أمر أحد صبيانه أن يأتي له بالنارجيلة وبالقهوة للإمام. جلسا في انتظار رضا صقر، يتحدثان في أحوال الدنيا. ومن حين لآخر، يُحيي زكريا الصايح زبائنه الخارجين والداخلين، أو يميل أحد صبيانه على أذنه ليقول شيئًا، فيقره زكريا أو يرفضه.

رشف الإمام الفارسي القهوة، أشعل سيجارة وتكلم بحزن عما يحدث في العراق وعما يشاهده الجميع في نشرات الأخبار. حكى لزكريا عن السنين التي قضاها هناك وعن سامراء والنخل العالي

fb/mashro3pdf

ونهر دجلة الوسيع وعن النجف الأشرف، وعن أيام صعبة قضاها في البداية، ثم أتاه اللـه من فضله الشيء الكثير.

قال إنّه في أول الأمر لم يجد عملًا بسهولة، وكان يشعر بالحرج من طلب المال من أصدقائه الذين يشاركهم السكن. كان يدور في الشوارع مفكرًا في الرجوع. يوهنه الجوع حتى لا يكاد يقوى على السير. وذات يوم، سقطت تمرات من نخلة داخل سور بيت، فمسح عنها التراب وأكلها. رآه صاحب البيت فأعطاه كيسًا مليئًا بالتمر وقال له أن يأتي في أي وقت يشاء كي يأخذ من التمر ما يريد. فَهِمَ الإمام لهجته بصعوبة، شكره لكنه لم يذهب إليه مرة أخرى.

كان زكريا يدخن النارجيلة ويهز رأسه إيجابًا، قائلًا بين الحين والآخر: "ايوا يا عم ما انا عارف". وفجأة تذكر شيئًا، فاعتدل في كرسيه ومد يده إلى جيب القميص، سحب ورقة صغيرة مطوية فتحها بحرص، أخرج منها سِنة أفيون وأعطاها للإمام الذي وضعها تحت لسانه، فغزت مرارتها فمه. شرب جرعة كبيرة من القهوة، وأشعل سيجارة أخرى، وأتم حديثه. بعدها بشهور تغير الحال تمامًا، وبسبب عمله، طاف كثيرًا من أرجاء العراق، رغم قصر المدة التي قضاها. قال إنه أحب "الباجه" العراقية، كان يأكلها في مطعم يمتلكه مصري، وهناك شرب البيرة بدينارين فقط. سأله زكريا مستفسرًا:

fb/mashro3pdf

- ايه الباجه دي يا امام؟

- دي لحمة الراس.. بيقولوا عليها باجه

أتى صبي المقهى ليغيّر حجر المعسل لزكريا، وقال الإمام إن حظه التعس هو ما أنهى فترة عمله هناك. بدأت حرب العراق مع إيران بعد ثلاثة أعوام من وصوله، واشتبهت الشرطة فيه ذات يوم. عرف بعدها أن اسمه كان هو السبب. قضى في المخفر أسبوعًا كاملًا لا يعرف جريمته ويقسم للضابط أنه لم يذكر أحدًا بسوء ولم يتكلم عن أحد مع أحد.

خرج بعد أن فقد ماله في المخفر. وبعدما فقد أصحابه الأمل في عودته. ولما عاد قالوا إنهم سيرحلون جميعا عاجلًا أو آجلًا، لكنه يجب أن يرحل فورًا، فلا يعرف أحد ماذا سيحدث غدًا. ولما لم يستطع الخروج عن طريق المطار، عاد هاربًا في باخرة، جوار صندوق فيه جثمان عامل مصري.

غزا الأفيون دم الإمام، فاجتاحه الهدوء، وسحب نفسًا عميقًا من السيجارة بعدما انتهى من الكلام. جاء محمود رشاد، سحب كرسيًا وجلس، حيّاهم وأخذ سيجارة من علبة الإمام. وكعادته بدأ يشكو من ضيق ذات اليد وكيف أن مهنة النقاش لم تعد كما كانت. شرد الإمام متفاديًا سماع كلامه المكرر، ودخل زكريا في حوار مع أحد الزبائن الجالسين جواره، ثم دخل المقهى ليقضى حاجته في المبولة

fb/mashro3pdf

الصغيرة. كانوا جميعا يضيقون بأحاديث محمود رشاد، ولم يكونوا يميلون إليه كثيرًا. لكنه فرض نفسه على الجلسة بشكل ما في غفلة منهم.

سمعوا نفير السيارة الذي أطلقه رضا عدة مرات، سبّ محمود مازحًا وأمره أن ينزل ساقه التي وضعها فوق الأخرى. نزل من السيارة، جلس جوارهم، وطلب المعسل والقهوة. سأله زكريا عن سبب سعادته الغامرة، فحكى رضا أنه التقى بواحدة من اللواتي يسعى وراءهن يوميًا، روى تفاصيل اللقاء وهم يضحكون. ركبت معه التاكسي، فجاذبها الحديث، عرف أنها مطلقة، أوصلها إلى بيتها، وأخذ منها ميعادًا لليلة الغد.

ترك رضا مهنة النقاش، واشترى التاكسي بما ادخره أثناء عمله في الخليج. أراد أن يستريح من المهنة الشاقة، فالعمل على السيارة الأجرة أسهل ويدر مالًا أكثر، والأهم أنه يتيح له أن ينال ما طاب من النساء.

ولما أغلقت المحلات وخفت حركة الشارع، دارت على رواد المقهى النارجيلة وامتلأ الجو بدخان الحشيش. وكلما اشتد هبوب الهواء طقطق الفحم المشتعل، واحتواهم صوت أم كلثوم، وسرى لامعًا صافيًا في صمت الشوارع وهي تغني "فات الميعاد".

fb/mashro3pdf

في السابعة صباحًا، استيقظ الإمام الفارسي على صوت أخته سحر توقظ ابنه في الغرفة المجاورة. جلس على السرير، فتح زجاج الشباك، سمع صوت غليان الزيت قادمًا من المحل.

دخل الهواء البارد إلى رئته فسعل. سمعته أخته، فتحت باب الغرفة وسألته إن كان سيتناول إفطاره هنا أو في المحل، فهز رأسه إيجابًا مشيرًا بيده إلى تحت. خرج إلى الصالة الصغيرة، رأى سعد خارجًا من دورة المياه والمنشفة حول رقبته والماء يقطر من وجهه وشعره. وقف على باب الحمام، وقبل أن يدخل قال له بصوت أجش من أثر النوم:

- ابقى نام بدري عشان متغلبش عمتك كل يوم يالا

ارتدى الإمام ثياب العمل، وضع الشال الأبيض على كتفه، كاد يصطدم بأجولة الفول وأقفاص الخضروات على السلم الضيق المظلم. ولما رأته أمه بملابس العمل، استبشرت خيرًا وازدادت ابتسامتها اتساعًا.

fb/mashro3pdf

- صباح الخير يا امّه

- صباح الرضا يا حبيبي

جلس على كرسي في باطن المحل بعد أن وضع الشال على كرسي آخر. سألته أمه هل تأتي بالإفطار، فهز رأسه إيجابًا.

تركت أم فوزي الفلافل طافية في قدر الزيت المغلي، وضعت الفول في طبق صغير، هرسته وأضافت الملح والكمون، وفص ثوم وزيت الذرة. قام الإمام يقلب أقراص الفلافل بعصا ألمونيوم رفيعة وأخرج لنفسه ثلاثة أقراص. وضعت أمه الطعام على المنضدة مع خمسة أرغفة ساخنة.

كان يأكل ببطء، ينفض الماء عن الجرجير، وأمه ترد سلام العابرين وتلبي طلبات الزبائن بسرعة، وهي مبتسمة كعادتها. أنهى طعامه، فجاءته بالشاي. تحسّرت على أكله القليل، فقال إنّه سوف يحمل ما تبقى معه. يرشف الشاي ويدخن السيجارة بلذة، تنعشه بنسمات الهواء الباردة.

مر سعد من أمام المحل مع أحمد يوسف، ناداه وأعطاه نصف جنيه، حذره من مغبة التصرفات الطائشة وشدد على ضرورة الانتباه لما يقوله الأساتذة. أنهى الإمام كوب الشاي والسيجارة الثانية. أعلن الراديو الساعة الثامنة، فنهض سائلا أمه:

fb/mashro3pdf

- مش عايزة حاجة يا امه؟

- عايزاك طيب

ربتت على كتفه، ودعت له بالرزق والوفير والستر والصحة، وأن يعود سالمًا من كل سوء. لف الإمام الشال الأبيض على رأسه. رأى سيارة رضا واقفة تحت البيت، ورأى ابنه وأصحابه ذاهبين إلى المدرسة. ورغم بعد المسافة، قرر أن يسير ريثما ينتهي صبيه من إعداد ما يلزم.

حين وصل رأى صاحب الشقة جالسًا أمام البيت يتابع العمال وهم ينقلون الإسمنت والرمل فحيّاه. وأثناء الكلام عاد الرجل يؤكد أنه يريد الجدران حريرًا. هز الإمام رأسه بالإيجاب مبتسما، وقال إنّه سوف يتحمل التكلفة كلها لو رأى الباشا خطأ واحدا.

نظر الإمام إلى الأعلى، فرأى السيد صبيه رافعًا يده بالتحية من الشرفة. استأذن من صاحب الشقة أن يصعد، فأعطاه الرجل جزءًا من أجره كي يبدأ العمل بمزاج جيد.

وقف الإمام يدخن في الشرفة، ريثما ينتهي السيد من تثبيت السقالة الخشبية وتخمير عجين الإسمنت والرمل، ثم فتح الراديو الأحمر الصغير على إذاعة القرآن الكريم.

رش الحوائط والأسقف بالماء، تشربها القرميد الأحمر بسرعة.

fb/mashro3pdf

صعد على السقالة، يأتيه السيد بعجين الإسمنت، يقذفه بقوة إلى السقف ليلتصق، ويمرر عليه قطعة حديد ملساء.

نقّل قدميه على جذوع الخشب المتوازية بخفة، حرك جذعه في حركة نصف دائرية ذهابًا وإيابًا، فرد الإسمنت، مكوّنًا فوق القرميد طبقة إسمنت رطبة حرص أن تكون خالية من النتوءات قدر الإمكان.

انتهى من السقف، فجلس القرفصاء على السقالة، مستندًا بظهره إلى الحائط. طلب من السيد كوب شاي. أنصت إلى ترتيل الشيخ البنا الآتي من الراديو وهو ينفث الدخان متابعًا دورانه حتى يتبدد. أخرج من جيبه مسمارًا صغيرًا، وكتب اسم اللـه بخط صغير لا يُرى على إسمنت السقف الطري مثلما يفعل دائمًا. جاءه السيد بالشاي، وضعه الإمام جواره وعاد إلى جلسته. وجلس السيد على الأرض وقد ازدادت برودة الهواء الآتي من الشباك الخالي من الضلف.

يتعجب السيد من شرود الإمام، لا يتكلم كثيرًا، يكاد لا يعرف عنه شيئا. حرص على التقرب منه حتى يعمل معه بشكل دائم. يعرفه منذ عامين فقط. وجده مختلفًا عن كل الأسطوات الذين عمل معهم من قبل، وجده أمينا، يعامله بالحسنى. رفض أن يتركه ليعمل مع آخرين، حتى في أوقات الركود التي قد تطول، لكنّ ما يحيره ويضايقه أحيانًا هو شروده وصمته شبه الدائمين.

fb/mashro3pdf

- أخمّر مونة كمان يا اسطى؟

قالها السيد متعمدًا قطع شرود الإمام وصمته بعد أن أنهى كوب الشاي وثلاث سجائر متتابعة، دون أن يتحرك.

بدأ الإمام في تغطية الجدران بالإسمنت، والسيد يواليه بالقصعات. يعمل بدقة وسرعة منصتًا إلى القرآن. يحب ما يلقيه في قلبه من سكينة. كثيرًا ما تمر عليه كلمات لا يفهمها، وكلما أراد أن يسأل الشيخ عبد الرحيم عن معناها ينسى. يهتز قلبه ويطرب للنغمة العذبة الحلوة، ولكم أحبّ مريم وتعلق بها. بكى ذات ليلة لما تخيلها واقفة بابنها أمام أهلها، وكلهم يتهمونها بالزنا. يتخيل شكل الملائكة بأجنحة كبيرة بيضاء، فيهتز قلبه فرحًا، ويخشع ويرقّ من عظمة اللـه ورحمته.

أذّن الظهر، فحان وقت الراحة. وقف في الشرفة مع السيد يأكلان الطعام الذي حضرته أمه، ويشربان الشاي. نظر السيد إلى القمامة الملقاة في الشارع وقد تجمعت حولها طيور أبي قردان التي اتسخ ريشها وصار بنيًا، ثم قال بفم مليء بالأكل:

- شايف يا اسطى.. ابو قردان متوسخ ازاي.. بقى بياكل من الزبالة.. هج وساب الغيطان بعد ما اترشت كيماوي.

همهم الإمام ونظر إلى طيور أبي قردان التي تضع مناقيرها في

fb/mashro3pdf

القمامة. فرح السيد لما نجح في جذب انتباه معلمه، فأكمل قائلا:

- عارف يا اســطى.. أنا رحت اطلع بطاقة لقيتهم كاتبين محل الميلاد جرجا، وطلعوا ميتين أمي عشــان اغيره.. هي فين جرجا دي يا اسطى؟

- في الصعيد باين

- اللـه!.. طب وانا مالي ومال الصعيد؟!

خرج الإمام من الشــرفة، ألقى عقب الســيجارة على الأرض وداســه بقدمه، ثم أمر صبيه أن يحضّر كمية أخرى من الإسمنت بعد أن ينتهي من الأكل.

fb/mashro3pdf

خرج محمد حسين من المدرسة، بعدما انتهت حصصه، قرر أن يعود إلى البيت مشيًا، أراد أن يؤخر وصوله إلى البيت قدر الإمكان، كي يفكر في حلٍ لما ألم به دون سبب.

ســـار محاذيًا النيل، حاملًا دفاتره. وكلمـــا نبت العرق في كفه نقلها إلى اليد الأخرى، رغم أن الشمس غائبة أغلب الوقت. شروده والهـــواء البارد يخففان قليلًا من عناء الســـير. لم يفهم لماذا لم يعد قادرًا على معاشـــرة زوجته رغم رغبته المشتعلة. مر على زواجه ثلاث سنين، وسناء تتقلب في السرير كل ليلة تسفعها الرغبة. وكل ليلة تنهش عقله الوســـاوس ويأكل الخـــوف روحه. يعرف أنها لن تتحمل أكثر وسوف تنهار في يوم ما.

لم يعد يسمح لها بالخروج وحيدة، يذهب معها إلى أمها كل أسبوع على غير العادة. يخاف أن تحكي عما ألم به. يجلس مع أبيها وإخوانها، يتابع كلامها مع أمها. يكاد يقفز من مكانه كي يلاحقها لو

fb/mashro3pdf

اختلت بها. فشلت كل محاولات زوجته في الذهاب به إلى طبيب، يخاف أن يراه أحد معارفه خارجًا أو داخلًا من العيادة. غضبت زوجته وثارت، فلم يكن أمامه إلا التذلل. استرضاها حتى بكت، ترجاها ألا تقول لأحد وأن تصبر، وألا تتركه أبدًا.

ترك محمد حسين، النيل، خلفه ودخل شارع بورسعيد، ومنه إلى شارع العباسي الضيق المزدحم دائما. عرج على الدهمشاوي، أكبر عطار في المدينة، ظل واقفًا أمام اللافتة الكبيرة. أخرج الورقة من جيبه، تردد في الدخول، خاف من نظرات البائع. أعادها إلى جيبه ومضى في طريقه إلى البيت.

فتح باب الشقة، فخرجت سناء من الحمام. رأى صدرها المكتنز الشبيه بدمعة العين وحلمتيها النافرتين، عبر الجلباب الخفيف المبتل بالماء. سألته هل تأتي بالغداء، فقال ليس الآن، ولما استدارت داخلة، رأى ردفيها اللدنين يهتزان. وضع دفاتره على منضدة السفرة، جوار الساعة التي تشبه الكمان، ودخل يبدل ملابسه.

أحس برغبة في التدخين، فأخرج العلبة التي تركها منذ أسابيع. أشعل سيجارة وجلس يشاهد التلفاز دون رغبة في مشاهدته. عبرت سناء الصالة متجهة إلى الشرفة، حاملة سبت الغسيل. صاح غاضبًا واستنكر خروجها إلى الشرفة بالجلباب المبتل. وضعت ما في يدها على الأرض، وذهبت تغير ملابسها دون كلمة واحدة.

fb/mashro3pdf

أخذ من المطبخ طعام العصفورين وزجاجة ماء. وخرج إلى الشرفة. فتح القفص، وضع الطعام وبدّل الماء، وهو ينظر بطرف عينيه إلى الشرفات والشبابيك المقابلة.

رأى صالح أبو العز جالسًا بالجلباب في الشرفة يقرأ الجريدة، وبقية الشرفات والشبابيك مغلقة. نظرت إليه سناء من فوق كتفها، فطنت إلى نظراته، لم تتكلم، وضعت المشبك الخشبي في فمها وعضّتْ عليه، وأكملت تعليق الملابس المبتلة على الحبال.

قال لها وهو يهم بالخروج، أن تنشر ملابسها الداخلية على صف الحِبال الخلفي، وأن تحاذر من سقوطها في الشارع، وأن تغلق باب الشرفة بعدما تنتهي حتى لا يدخل الذباب.

وقف محمد في المطبخ يصنع لنفسه فنجان قهوة. كان مدركًا أنه يهينها بتصرفاته وبحركاته المكشوفة. حاول كثيرًا أن يكبح جماح شكوكه فلم يستطع. دخل غرفة المكتب حاملًا فنجان القهوة وعلبة السجائر، أغلق الباب، فتح الشباك والراديو، كان المؤشر مضبوطًا على إذاعة البرنامج الموسيقي كما هو لم يتغير. رأى الكمان موضوعًا على المكتب، نسي أن يضعه في حقيبته الجلدية منذ تركه آخر مرة. نقر الأوتار بأصابعه، فوجدها قد ارتخت وتغيّر الدوزان.

فجأة سمع صراخًا آتيًا من الطابق الأول. سمع رضا صقر

fb/mashro3pdf

يسب ابنه ويضربه، والولد يصرخ وأمه تولول. خرج من غرفة المكتب وسناء واقفة في الصالة المظلمة، ينعكس ضوء التلفاز على عينيها الجميلتين المتسعتين من أثر الخوف. اعتادا سماع أصوات الشجار في شقة رضا، فدائمًا يضرب هو أو زوجته ابنهما هاني، أو يتشاجران سويا، أو يصرخان في البنتين. اعتادا تجاهل الأمر، لكن أصوات الصراخ والضرب كانت أقوى هذه المرة.

- انزل شوف في ايه!

صرخت سناء وهي ترتجف خوفًا. تجاهل ما قالته كي يؤخر نزوله ريثما تخف حدة الصراخ والضرب قليلًا. فهو لا يحب رضا، يشمئز من آثار الحريق على جانب وجهه الأيسر، وتزعجه نظراته وعيناه الخضراوتان. يرى فيهما قسوة وغرورًا وفظاظة، فضلًا عن أنه يتجنب الصراعات ولا يقحم نفسه فيها أبدًا. تصنّع البحث عن خُفّهِ في الصالة المظلمة، فأوقدت سناء النور. وجده تحت الأريكة، ارتداه ونزل الدرج، يكاد قلبه يقفز من فمه.

وقف أمام الباب المفتوح بوجل، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى. رأته ليلى زوجة رضا، فصرخت ملتاعة تستنجد به:

- الحقنا يا أستاذ محمد!

رأى الولد مرميًا على الكنبة، رافعًا ركبتيه إلى صدره، واضعًا

fb/mashro3pdf

يديه على وجهه، وأبوه يكيل له الضربات بيده اليمنى، وبالحزام في اليد اليسرى، مطلقًا سيلًا من السباب.

خطا محمد خطوتين إلى داخل الشقة، أمسك رضا الولد من تلابيبه ورماه على الأرض، يركله بقدميه ويضربه بالحزام، ارتطم الجزء الحديدي من الحزام برأس الفتى، فصرخ وانبثق الدم من رأسه. تراجع رضا خطوة إلى الوراء، وتوقف عن الضرب.

وجدها محمد حسين فرصة سانحة كي يتدخل، بدلًا من وقفته عديمة الجدوى. تقدم خطوتين إلى الأمام متوجسًا، يخاف أن يسمع من رضا ما لا يرضيه، قال مستعطفا:

- وحد اللـه يا ابو هاني.. كفاية كده الواد اتعور

ثم جذبه من يده ناحية الأريكة. أفاق رضا وعاد يسب الولد ويلعنه، رفعت الأم ابنها من على الأرض، وأخذته إلى الحمام وهو يئن بصوت خفيض.

- وحياة امك يا ابن الكلب لاموتك المرة الجاية

صرخ في إحدى البنات كي تأتيه بعلبة السجائر، جاءته بها، فخطفها من يدها وصرخ:

- اخفي خشي جوه

- اهدى بس يا حاج رضا.. ايه اللي حصل عشان ده كله؟

fb/mashro3pdf

- ابن الوسخة كان هيجيبلنا نصيبة

ارتبك محمد من السباب الفج في حضرة زوجته والبنتين، وأمامه كشخص غريب. سأله مرة أخرى عما حدث، فأشعل رضا سيجارة وصمت. ظن محمد أنه لن يجيبه، فغمره شعور شديد بالحرج. نفث رضا الدخان، جذب المنفضة جواره، ثم حكى.

أوقفه أحد المشرفين في مؤسسة رعاية الأيتام، وهو عائد بالتاكسي عصرًا، قال له تعال معي وانظر ماذا فعل ابنك. جذبه من ساعده بغضب، كاد رضا أن يضربه، لكنه انتظر حتى يرى.

دخلا إلى حجرة الطبيب المجاورة للبوابة. هناك رأى رضا الفتى المنغولي ياسر، ممددًا على السرير والدم يلطخ ثيابه المهترئة. يئن بصعوبة ويحرك رأسه يمينًا ويسارًا. قال المشرف إن ابنه هو من فعل هذا، ثم سأل الفتى، فأجاب بلسان معوج أن هاني ضربه دون أن يفعل له شيئًا.

من رأوا الواقعة حكوا للمشرف. كان ياسر يجري خلف عنزة ضالة خرجت من مدرسة الزراعة، عرقله هاني فسقط على وجهه. ولما قام يجري خلفه غاضبًا، انهال عليه ضربًا. وأضاف المشرف أن الطبيب في طريقه إلى هنا، ولو احتاج الفتى المنغولي علاجًا لأكثر من واحدٍ وعشرين يوما، فقد تحرر الإدارة محضرًا ضد ابنه، فيدخل سجن الأحداث، والشهود حاضرون. ثم وجه لرضا

fb/mashro3pdf

الاتهامات غاضبًا، وأنّبه على سوء تربيته. فأيُّ طفل هذا الذي يضرب منغوليًا أعرج لا يستطيع إبعاد ذبابة عن وجهه. قال المشرف إن هاني لو كان عنده في المؤسسة، لعرف كيف يتعامل معه.

كبح رضا غضبه ورغبته في ضرب المشرف بصعوبة. أشعل سيجارة وضغط على عضلات فكيه بقوة، وقال من بين أسنانه إنه سيعيد تربية الولد الذي فشل في تربيته فعلا. واستسمح المشرف ألا يحرروا محضرًا حتى لا يضيع الفتى، فالأمر كله مجرد عبث أطفال، وهو سيتحمل تكاليف العلاج، حتى إذا احتاج ياسر دخول المستشفى. ثم مد يده إلى جيب القميص وأخرج مالًا، وقال إن هذا جزء من تكاليف العلاج. رد المشرف يد رضا بحركة عنيفة، مجيبًا أن النقود لن تنفع الفتى بشيء. وعليه أن يشتري الأدوية التي سيكتبها الطبيب. وأن يمنع ابنه من الاقتراب من المؤسسة ومن فيها، ثم دفعه دفعًا خارج العيادة الصغيرة وأغلق الباب على الفتى الراقد متألمًا.

- على آخر الزمن هيدخلنا في سين وجيم.. ويخلي واحد ابن وسخة زي ده يتكلم معايا كده.

قالها غاضبًا، منهيًا الحكاية وهو يهرس ما تبقى من السيجارة المشتعلة في المنفضة. حاول محمد حسين تهدئته، تحدث عن تربية

fb/mashro3pdf

الأولاد في هذا الزمن الصعب. خاصة وأن ابنه قد صار مراهقًا تلزمه عناية كبيرة، وعليه ألا يحمل همًا. فلو أرادت إدارة المؤسسة تحرير المحضر لفعلوا، ولما كلمه المشرف. كل ما في الأمر أنهم لا يريدون تحمل تكاليف علاج الفتى المنغولي البائس.

لما انتهى من الكلام، زاد شعوره بالحرج لأن رضا كان لا يعيره انتباهًا، عرض محمد حسين خدماته للمرة الأخيرة، واستأذن في الخروج.

وعلى مائدة الغداء، حكى لسناء ما حدث وأعاد الحوار الذي دار بينه وبين رضا. حزنت سناء على الفتى المنغولي. يعرفه الجميع مسالمًا لا يؤذي أحدًا. قال محمد إن تربية هاني جعلته عدوانيًا، وإن أباه السادي وأمه القاسية هما السبب. واستطرد قائلا إن رضا لم يضرب ابنه لأنه ضرب الفتى المنغولي، بل لأن المشرف عامله باحتقار بسبب تصرفات ابنه. ثم عبر محمد صراحة عن كراهيته لرضا. وأمر زوجته وهي تكور أوراق الجرائد المتسخة ببقايا الأكل، وتمسح زجاج المنضدة ألا تصادق زوجته أو أية امرأة أخرى من الشارع. ولتستمر العلاقات سطحية لا تتعدى إلقاء السلام. وأقسم منهيًا الكلام أنه لن يتدخل فيما قد يدور بينهم مرة أخرى، مهما حدث.

fb/mashro3pdf

طلب أحمد من السيد تاج الدين مدرس الرياضيات الإذن بالذهاب إلى دورة المياه فرفض. وقال المدرس إنه سوف يسمح له بالخروج بعدما ينتهي الشرح، فأقعي أحمد مكانه شاعرًا بالغضب. كان مسجونًا، يستمع إلى شرح المدرّس الجلف الذي لا يفهم منه شيئًا.

شرد بعيدًا عن حصة الهندسة المملة، تذكّر مروة وتذكّر النتوءات التي بدأت تزدهر في جسدها وخجلها من نظراته إليها. رآها خارجة مع أمها ليلة أمس، ترتدي فستانًا أسود قصيرًا ضيقًا يظهر نهدين صغيرين في بداية التكور، وقد صبغ الأحمر خديها وشفتيها، واستطالت رموشها قليلًا، وزاد الكحل عينيها اتساعًا، فصارت أكبر بعشر سنوات. تمشي أمها جوارها، طويلة بيضاء، بضة، شعرها أصفر، ترتدي تنورة مخملية سوداء. كشفت عن ساقين ملفوفتين، زاد من جمالهما الجورب الشفاف الأسود. وقد فطن أحمد إلى أنهما ذاهبتان إلى حفل زفاف.

fb/mashro3pdf

التقت عيناه بعيني مروة فأشاحت بوجهها. رأى عيون العابرين في الشارع والجالسين على المقهى تأكلهما. سمع أحدهم يقول إن أمها فرس يحتاج خيّالًا عفيًا، ولو اعتلاها ليلة كاملة فلن تشبع.

انتهت حصة الرياضيات، فلملم المدرس أغراضه ورحل. لم تكن لدى أحمد رغبة في دخول الحمام، لكنه شعر بوحشة وكآبة لا يعرف سببهما. وقف على باب الفصل، نظر ناحية غرفة المدير وغرف المدرسين، ثم عبر الفناء الرملي إلى الحمام. فتح الصنبور وغسل وجهه. وقف قليلًا أمام الهواء البارد الآتي من الشباك فارتجف، وفجأة دخل أحد الطلبة إلى الحمام جريًا وأغلق الباب، فخرج أحمد عائدًا إلى الفصل.

في طريق العودة إلى البيت لاحظ سعد تبدل حال أحمد، لكنه لم يرد أن يسأله الآن حتى لا يسمعه بقية الأصدقاء. افترقوا وذهب كل إلى بيته. وبعدما صعد أحمد إلى الشقة، أدرك أنه نسيَ المفتاح. فوضع الحقيبة الثقيلة أمام الباب ونزل.

تلقائيًا ذهب إلى محل أم فوزي. وجدها تغسل الأواني، فسأل عن سعد. قالت إنه صعد حالًا ثم سألته هل أتت أمه؟ فأجاب بالنفي، وأخبرها أنه نسي المفاتيح وعليه أن ينتظر عودتها أو عودة أبيه. أشارت له بالجلوس ووقفت على باب البيت ونادت سعد قائلة إن أحمد ينتظره.

fb/mashro3pdf

انتهت من غسيل الأواني، فغسلت يديها من الصابون، وجلست على الكرسي أمام ماكينة العجين. وضعت الفول المدشوش والكراث والبصل، وبدأ هدير الماكينة الخشن، ورجّ اهتزازها الأرض.

رأى أحمد شفتيّ أم فوزي تتحركان دون أن يسمع شيئا. نظرت ناحيته فجأة فارتبك وأشاح بوجهه ينظر إلى الشارع. أطفأت الماكينة وسكبت العجين الأخضر في وعاء بلاستيكي كبير، رشت عليه مسحوق البيكربونات الأبيض وقلبته بيديها، ثم غطته بقطعة شاش نظيفة ووضعته على رف خشبي. غسلت يديها مجددًا وجففتهما، وجلست جواره. أحيانًا كان يناديها تيتة أم فوزي، بناء على طلبها، فهو كسعد تمامًا ومحبتهما في قلبها واحدة، هكذا قالت.

سألها عن أم عصام، بعدما لاحظ غيابها منذ عدة أيام، فأجابته إنها مريضة وسوف تذهب للاطمئنان عليها بعد قليل. في الصباح، خرج عصام إلى الوردية وترك لأم فوزي المفتاح، فأطعمتها وأعطتها الدواء، لكنها كانت قلقة بشأنها، طلبت من اللـه أن يلطف بها ويتولاها برحمته.

علت نبرة الحزن في صوتها مع الكلمات الأخيرة. فأدرك أحمد أن حالتها سيئة. قالت أم فوزي إن أم عصام حكت لها حلما رأته ليلة أمس، لا يبشر بخير أبدًا. اعتدل أحمد في جلسته ومال بجانب وجهه ناحيتها، كأنه يطلب منها أن تكمل.

fb/mashro3pdf

تابعت أم فوزي وقالت إنها كانت تتكلم بصعوبة، وقد تجمعت قشور بيضاء على جانبي فمها. أجلستها على السرير وقدمت لها الماء. وبعدما استطاعت الكلام، قالت إنها رأت نفسها تسبح في فضاء الغرفة التي تنام فيها، وقد اختفى الباب والنافذة، فظلت تبحث خائفة عن أي منفذ لتخرج، ثم رأت الماء يتسرب من شق في سقف الغرفة، ذهبت ناحيته محاولة أن تخرج فلم تستطع. مدت يديها توسّع الشق، ولما أطلت برأسها خارجًا، رأت سماءً غير السماء التي تعرفها. رأتها بيضاء سكرية، وجاء في قلبها أن ملمسها كالقطيفة، ثم حررت جسدها كله، ثم استيقظت على صوت عصام يسألها إن كانت تحتاج شيئًا قبل أن يذهب إلى الوردية.

انقبض قلب أم فوزي بعدما سمعت حلم جارتها. شددت على حاجتها للدفء والراحة وتناول الدواء في مواعيده. وضعت عليها الغطاء وفتحت زجاج الشباك كي يتجدد هواء الغرفة. وقالت لها سأعود بعد الظهر.

صمتت أم فوزي، لم يفهم أحمد شيئًا ولم يعلق، فأضافت أن كل المحتضرين يعرفون أنهم سيموتون قبلها بعدة أيام. طلبت من اللـه بصوت غيّره الحزن وقد أوشكت على البكاء أن يلطف بها وألا يحمّلها ما لا تطيق، فهي امرأة طيبة لم ير أحدٌ منها شرًا، ويكفي أن قلبها مكسور منذ وفاة ابنها. واستطردت تقول إنها قد عرفت بوفاته من حلم حكته لها أيضا، لأن أم عصام طيبة، واللـه يبث في

fb/mashro3pdf

قلبها الأحلام والرؤى التي دائمًا ما تتحقق.

- وعرفتي ازاي يا تيتة؟

ذات يوم جاءتها أم عصام عائدة من السوق، حين كانت بعد قادرة على الحركة. جلستا معًا في المحل تشربان الشاي وتحكي لها منامها. رأت نفسها شابة عفية مثلما كانت، وقفت تتزين أمام المرآة وقد حلت شعرها الأسود الطويل، وفي يدها ثلاثة أمشاط احتارت أيهما تختار. سقط المشط الأوسط على الأرض، وعندما انحنت كي تمسكه لم تستطع النهوض مرة أخرى. انكسر ظهرها ولم تعد قادرة على الوقوف مستقيمة. جاء في قلب أم فوزي يومها أن علاء ابنها الأوسط سوف يصيبه شر ما. لكنها طبعًا لم تخبرها بما يعتمل في نفسها. وبعدها بأقل من أسبوع مات ابنها غرقًا.

سرت رعدة في جسد أحمد النحيل. نظر إلى يدها المجعدة ذات العروق النافرة والخاتم الذهبي الكبير المغروس في إصبعها، وتوجس خيفة منها. قالت إن اللـه يرسل دائمًا إشارات إلى عباده الصالحين لكي يحذرهم، أو لكي يخبرهم بشيء. وكلما كان قلب العبد نقيًا أبيض، كلما اقترب من اللـه فأنار بصيرته وقلبه.

قطع مجيء سعد كلامها، وقف على الباب متعجبًا من جلستهما وحديث جدته الذي انقطع بمجيئه. قام أحمد وخرج إلى صديقه الذي أخبر جدته أنهما سيصعدان إلى السطح كي يطعما الحمام.

fb/mashro3pdf

قبل الوصول إلى السطح، تحول السلم الإسمنتي إلى سلم خشبي نخر متهالك. خاف أحمد وصعد بحذر، بينما سبقه سعد وصعد جريا، ووقف لاهثًا يفتح القفل الكبير. حتى وقت قريب كان صعود السطح محرمًا على سعد، وكانت رعاية الحمام مهمة خالته سحر، يصعد معها ولا يغيب عن عينيها أبدا. ورث حبه للحمام من عمه الراحل فوزي. لم يكن أبوه مهتمًا به كثيرًا، وانشغال جدته وكبر سنها منعاها من الصعود إلي السطح. رأى أحمد الأقفاص الخشبية مقامة أفقيًا، ليست كأبراج الحمام الكبيرة العالية التي يراها فوق بعض البيوت.

فتح سعد قفصًا، أمسك بحمامة بيضاء، جسّ صدرها المنتفخ، وقال "هذه حمامة زاجلة". ظل يفتح الأقفاص ويخرج واحدة أو اثنتين يجس صدرها البارز المتكور، يضع لها الطعام ويغير الماء، ويمد يده داخل الأقفاص ليتأكد من وجود البيض.

كلما أمسك سعد بحمامة تكلّم وأمطر أحمد بالمعلومات عن نوعها وخصائصها وأشكالها، حتى اختلط في ذهن أحمد الحمام الزاجل بالهزاز بالكشك الأحمر بالبهلوان، ولم يعد قادرًا على استيعاب شيء. مدّ أحمد يده وأمسك حمامة معقودة القدمين بخاتم حديدي. أحب شكلها، ريشها الناعم، صوتها وهزة رقبتها الدائمة، عينيها الصافيتين البريئتين.

fb/mashro3pdf

ترك أحمد صديقه يطمئن على الحمامات وأفراخها، واستند بصدره وبطنه على السور. رأى دجاجات عمته تتحرك بحرية على سطح الدار، وديكها الضخم يمشي مختالًا بريشه الأسود وعرفه القاني. تمنى أن يرى مروة واقفة على سطح دارها، لكنه رأى الغسيل الأبيض يرفرف في شرفتها.

انتهى سعد وجاء يقف جواره ويحكي عما يراه. فمن هنا رأى ابن الأستاذ عبد المنعم واقفًا على سطح داره يشير إلى ابنة صالح أبو العز. رأى بنات الدمرداش يلعبن على السطح وقد سقطت إحداهن وانحسر الفستان عن نصفها الأسفل. خاف أحمد أن يكون سعد قد رآه وهو يكلم مروة، أو أن يكون قد رأى منها أو من أمها شيئًا. قال سعد وكأنه قرأ أفكاره، إن هاني رأى مروة وأمها في الشارع ليلة أمس، إن مروة سمراء تشبه أباها، ولا تشبه أمها البيضاء الحلوة، وتقول أم هاني إن ناهد أم مروة تعمل راقصة.

- يالا ننزل أنا زهقت!

قالها أحمد بضيق، باترًا الكلام. تمم سعد بسرعة على الأقفاص للمرة الأخيرة، ثم نزلا.

جلس أحمد في المحل مع أم فوزي وسعد، ينتظر مجيء أمه أو أبيه. طلبت منهما أم فوزي ألا يتحركا ودخلت إلى أم عصام. تحدثا عن مباراة الأهلي والزمالك الأخيرة. عبّر سعد عن انبهاره

fb/mashro3pdf

بياسر ريان وسرعته الفائقة وتمريراته الذكية، وكيف مر من هشام يكن مدافع الزمالك. وقد وعده أبوه أنه لو حصل على درجات جيدة هذه السنة، فسوف يشتري له قميص ياسر ريان، وحذاءً رياضيًا جديدًا.

سمع أحمد صوت موتور السيارة قبل أن تمر من أمام المحل، فقفز خارجًا. توقفت السيارة أمام البيت. أنّبته أمه على نسيانه المفتاح، وكررت أخته كلام أمه وهي تصعد السلم وتهز حقيبتها وضفيرتيها يمينًا ويسارًا. فتحت أمه الباب، فحمل حقيبته ودخل.

أثناء الغداء، صرح برغبته في بناء عش حمام على السطح. قالها بوجل وتردد متوقعًا الرفض. تباطأت حركة أبيه وهو يأكل، ولم يرد منتظرًا أن ينتهي أحمد من الكلام، وسألت أمه متعجبة:

- وانت من امتى بتحب تربي الحمام؟!

أجاب أنه رأى أعشاش الحمام على سطح أم فوزي ويريد مثلها. قال أبوه إن الحمام يحتاج رعاية فائقة وعليه أن يطعمه ويغير له الماء كل يوم، فضلا عن التطعيمات التي لابد أن تتم في مواعيدها. ولسوف يحاسبه اللـه إذا أهمل رعاية الحمام ومات. تحمس أحمد، فالكلام يحمل موافقة ضمنية. قال إنّه سوف يبدأ بعدد صغير، ولو نجح الأمر وكبرت الزغاليل وكثر عددها سيستمر، وإن لم يكن يبيعها في سوق الثلاثاء، أو لمن يملك عُشًا. عقدت أمه حاجبيها،

fb/mashro3pdf

وهي تحمل الأطباق الفارغة، وقالت باستنكار:

- زغاليل وسوق التلات؟.. انت بتقعد مع مين يا ابني؟

تخيلت ابنها واقفًا على السطح بالفانلة الداخلية، يشير للأسراب بالراية ويصفر حتى يعود الحمام إلى عشه. تعلقت عينا أحمد بوجه أبيه، عله يستشف منه الموافقة.

- ربنا يسهل!

قالها أبوه ولم يزد، وقام يغسل يديه. أدرك أحمد أن هذا رفضٌ غير مباشر، أو مماطلة حتى يمر الوقت وينسى. ففي ظنهم أن الأمر ما هو إلا مجرد عبث أطفال وسينتهي بسرعة.

fb/mashro3pdf

بعد ثلاثة أيام، ماتت أم عصام. عاد أحمد من المدرسة ورأى الكراسي موضوعة في صفين متقابلين أمام بيتها، وصوت القرآن آتٍ من الداخل. وقف في الشرفة يشاهد استعدادات المأتم. رأى أحدهم يعلق ثريات كبيرة أمام البيت ويوصلها بعامود الإنارة. رأى أمه تدخل الشارع من الجهة الأخرى، من الحارة المفتوحة على شارع الأعصر. لم ترد أن تمر من أمام بيت أم عصام بملابس فاتحة اللون.

وفي المساء ارتدت الأسود، ونزلت مع أبيه إلى العزاء. وأمرته ألا ينزل حتى لا يترك أخته بمفردها. اقتصر العزاء على جلوس الرجال في الشارع أمام البيت، والنساء في الداخل. ووضِع جهاز الكاسيت على إفريز الشباك المفتوح، ليسمع المعزون في الداخل والخارج ترتيل القرآن.

سلم يوسف عاشور على عصام وعلى الجالسين حوله وجلس.

fb/mashro3pdf

أولاد عصام الصغار يطوفون بأقداح القهوة السادة على الحاضرين. دخلت سميحة الشقة، سلمت على أخت الفقيدة المنهمكة في البكاء، وعلى إيمان ابنة أم عصام وقبلتهما، وجلست جوار أم فوزي.

وقفت زوجة عصام في المطبخ مع بعض النسوة الأخريات، يصنعن القهوة ويغسلن الأواني. والمعزيات جلسن على كراسي الصالون المذهب شبه المتهرئة. يختلسن النظرات إلى ناهد زوجة أحمد جمعة. ترفع الطرحة كلما انزلقت عن شعرها الأصفر المصبوغ، فيظهر طلاء أظافرها الأحمر القاني. ترتفع التنورة شبرًا أو أكثر كاشفة عن ركبتيها. تخففت من الماكياج تماما، فبانت جميلة أيضا. يلوين الشفاه والرقاب امتعاضًا وقد امتلأت عيونهن مقتًا وغيرةً وحسدًا.

رأت أم فوزي الحزن في وجه سناء زوجة محمد حسين الجالسة أمامها. لاحظت في عينيها شيئًا ما وظلت تتابعها من طرف خفي، حتى انزلق كُم البلوزة، فرأت الشعر نابتًا على ساعدها.

جاء صوت عصام من الخارج ينادي على إحداهن معلنًا أن زوجها سيغادر. قامت المرأة الجالسة جوار أم فوزي، سلمت على أخت الفقيدة وابنتها، ودّعت الجالسات وخرجت. فأشارت أم فوزي إلى سناء، كي تأتي وتجلس جوارها. أرادت أم فوزي أن تتأكد من ظنونها، لكنها لم تستطع أن تكلمها وسط الجالسات المتربصات

fb/mashro3pdf

بكل شاردة وواردة. ربتت على كتفها، وانتظرت حتى تبتعد العيون عنهما.

بدأت أخت الفقيدة في البكاء فجأة، فاتجهت إليها الأنظار وانطلقت عبارات المواساة. كانت تتبع نظامًا محكمًا للبكاء. تصمت حينًا وتبكي حينًا، عاملة بنصيحة إحداهن حين مالت على أذنها قائلة: "حبة وحبة يا ام حنان.. حبة وحبة"، قاصدة بهذا ألا تهدر مجهودها كله مرة واحدة، وأن توزعه بحرص على الليلة كلها.

انتهزت أم فوزي هذه اللحظة، فمالت على سناء وهمست:

- مالك يا بنتي؟.. حالك مش عاجبني

بكت سناء بصمت وأخذت تهتز وتمسح عينيها. أدركت أم فوزي أن هذا بكاء امرأة تئن من وجع مخبوء، تنتحب حسرة على حالها. سألتها بمكر وحنكة عن الأستاذ محمد وأحواله، فأجابت سناء من بين دموعها أنه بخير ولم تزد. عادت تسألها بطريقة ذات مغزى عن بوادر شيء سيأتي في القريب العاجل، فهزت رأسها نفيا. قالت أم فوزي بعد فترة صمت إن لكل مشكلة حلا، وعليهما بالذهاب إلى الأطباء والمشايخ. فالله لا ينسى عباده وسوف يرسل فرجه عما قريب. وذكرتها بأن الزوجة الصالحة - وهي ابنة الكرام ـ تتحمل زوجها في الأيام المُرّة قبل أيام الرخاء.

fb/mashro3pdf

سمعت سميحة طرفًا من الحديث الذي دار همسًا، وفهمت ما تقصده أم فوزي. ثم أشاحت بعينيها عن نظرات فريال أخت زوجها. فمنذ جاءت إلى البيت وفريال تكيل لها السباب، وقد حاولت أكثر من مرة إفساد علاقتها بزوجها. حاولت سميحة أن تتقرب منها حتى تلين، فلم ترق لها أبدًا. وعندما اتهمتها فريال في شرفها انتهى كل شيء بينهما. تجملت بالصبر، ولم تخبر زوجها بشيء، لكي لا تفسد علاقته بأخته إلى الأبد، وحينها يستحيل أن يعيشا في بيت واحد، وفضلًا عن ذلك سوف تنكر فريال حينها ما قالت.

وقبل أن تدق الساعة العاشرة، رحل أغلب الرجال ومعهم زوجاتهم، رحلوا وظل كل شيء على حاله. لم يبق سوى عصام وحوله أصدقاؤه. على وجهه تعبير محايد، يتكلم قليلًا، ويدخن كثيرًا. ودعه يوسف عاشور ثم أخذ زوجته ورحل.

fb/mashro3pdf

بعد وفاة أم عصام بشهرين، أراد الحاج حمودة أن يقيم سرادقًا وأن يشعل الليل فرحًا بابنه. راح إلى عصام يستأذنه قبل أن يفعل أي شيء، مراعاة لحقوق الجيرة، وحتى لا يلومه الناس.

كان بيت الحاج حمودة آخر بيوت المالكين. من بعده تبدأ بيوت المستأجرين الذين نزحوا من الصعيد ومدن القناة منذ التهجير في السبعينيات. غالبيتهم يعملون في مهن بسيطة. حرفيون وأجراء أو باعة خضر وفاكهة في الأسواق المجاورة. يعاملهم سكان النصف الأول من الشارع بتعالٍ وازدراء مستتر، يظهر في رد التحية بجفاء وعدم الاهتمام بمشاركتهم أحزانهم وأفراحهم.

كان صبري عرفة بائع الأسماك أكثرهم صخبًا، يعرف الجميع لسانه السليط، ومشاجراته المتعددة. كلما رأى أحد سكان النصف الأول في السوق، يكيل له السباب إن لم يشتر منه، ولو فعل يطفف الميزان، ويعطيه سمكًا نتنًا.

fb/mashro3pdf

تشاجر ذات يوم مع أحد الصبية في مقهى الصايح، بحجة أنه لا يعامله كما يعامل الآخرين. احتوى زكريا الموقف بحنكة لما فهم رغبته في افتعال الشجار، وبعد حين مل صبري الجلوس على المقهى.

يتحدث صبري دائمًا بالسوء عن الجميع. يسب الدمرداش - جاره الأقرب - ويسب بناته السمراوات الدميمات مثله. يصف أحمد جمعة بالقواد، الذي ترك لامرأته الحبل على الغارب، لأنها تصبغ شعرها ووجهها، وترتدي تنورات قصيرة.

وجد صبري السماك في أم عوني - جارته في البيت المقابل - حليفًا ممتازًا قويًا. تشاركه في كراهيتهم، وتجلس طيلة الوقت في شباك الطابق الأرضي، تتلمس أخبارهم، وتتقصى مصائبهم وتشمت، وتطلق الشائعات.

لما رأى صبري الأنوار والسرادق والكراسي توضع في الشارع، قال لأم عوني بغلٍ إن هؤلاء القوم قد انعدمت فيهم الأخلاق. لا يحترمون الأموات، ولا يحترمون مشاعر الآخرين، يقيمون الأعراس، وجسد أم عصام لم يبرد في القبر بعد.

أشعلت أم عوني سيجارة، وأخذت تسبهم وتلعن أخلاقهم، ودناءتهم. نمى بينهما اتفاق ضمني بأن هذه الليلة لابد أن تنفض، احترامًا لذكرى الفقيدة، ولكي يتعلم حمودة أن يحترم الأصول.

fb/mashro3pdf

كان الحديث على مسمع من أبنائه الثلاثة، فخرجوا ومعهم الكرة. نادوا على عمرو حفيد أم عوني الأسود الضخم. كونوا فريقين، وجعلوا المرمى المشترك أمام السرادق مباشرة. حرصوا على ركل الكرة عاليا، وعلى التصويب تجاه اللمبات الملونة. طاشت الكرة عدة مرات، ثم أصابت حبلًا كاملًا، فكسرت مصباحين.

خرج الحاج حمودة يصرخ فيهم، ويحذرهم من تصويب الكرة ناحية السرادق. صرخ فيهم صبري عرفة وأم عوني، كأنهما يحذرونهم من التمادي. ووعدوا حمودة أنهم سيكفون عن اللعب، وسوف يبتعدون حالًا.

عادوا للعب فطارت الكرة فوق السرادق، وذهبت بعيدًا. عبرت من أمام أحمد وأصدقائه. فجرى خلفها رامي ابن صبري السماك. عاد حاملًا الكرة تحت إبطه. سار مخاتلًا ببطء كي يستفزهم. بصق على الأرض من فوق كتفه، ولما اقترب حذره حمودة صارخًا فيه، تركه رامي وركض ناحية أبيه.

وبعد حين رأوا الكرة ترتطم بالأخشاب التي ترفع خيمة السرادق، فمالت لدرجة خطرة، حتى كادت تسقط، لولا الحبال المتينة.

فطنوا إلى محاولة إفساد الليلة. فأولاد صبري لم يلعبوا سوى مرات معدودة. كانت إحداهما لإفساد مباراة لهم، فقامت بينهم مشاجرة، لم يفضها إلا تدخل حمودة نفسه.

fb/mashro3pdf

غيروا موقع اللعب. تقدموا قليلًا حتى وقفوا أمام بيت يوسف عاشور. تظاهروا باللعب، وأخذوا ينتظرون مجيء الكرة ناحيتهم كي يأخذوها ويفسدوا المخطط. وبعد حين جاءتهم الكرة. استغلوا أن السرادق يخفي الجهة التي وقفوا فيها، أخفوها بسرعة في مدخل بيت يوسف عاشور. ولما جاء سامح ابن صبري الأكبر، سألهم عنها سؤال المتأكد من الإجابة. فرد هاني ببرود أنهم لم يروا شيئًا.

رأى سامح الكرة في مدخل البيت. تقدم ليأخذها، فقفز هاني فوق ظهره وأسقطه على الأرض. جاء إخوته يركضون لنجدته، فقذفهم سعد وحسن وأشرف بقطع القرميد. أغلق أحمد بوابة البيت حتى لا يدخل أحدهم ويأخذ الكرة. ثم شارك في قذف المهاجمين، أصابوهم إصابات مباشرة لقرب المسافة فاختبئوا في الحارة المفتوحة على شارع الأعصر. ردوا ورشقوهم بالحجارة أيضا. والمعركة دائرة بين هاني وأخيهم الأكبر سامح الذي سقط على الأرض. خافوا أن يقذفوا هاني لكي لا يصيبوا أخاهم.

نام سامح على الأرض، حاول أن يحميَ وجهه من ضربات هاني العنيفة. شعر بالدم ينزف من أنفه، ركله في بطنه بقوة. كف هاني عن الضرب وأمسك ببطنه يئن. دفعه سامح وركض بقوة والتحق بإخوته. استمر التراشق والسباب حتى جاء عبد اللـه الاستورجي

fb/mashro3pdf

راكبًا درجاته البخارية. صرخ فيهم وهدد أن يخبر ذويهم عن ما يفعلون فتفرقوا. بعدما مُني سامح وإخوته وحليفهم الأسود الضخم بكدمات وإصابات شتى، وخسروا الكرة.

رأى أحمد نفسه يسير مع مروة في ردهة واسعة ماسكًا يدها. يحيط بهما برد يشع من الأرض والجدران. رأى ضفيرتها السوداء الناعمة مرمية على كتفها الأيمن، وعينيها العسليتين الفاتحتين صارتًا أوسع وأجمل.

رأى سلمًا ضيقًا فجذبها وصعدا. وبعد عدة درجات، شعر أحمد بالاختناق. ومع كل درجة يصعدها، يضيق صدره أكثر فأكثر حتى أصبح عاجزًا عن التنفس، رأى ماسورة مياه ضخمة فوق رأسه يتسرب منها الماء...

أيقظته أمه، بسملت واستعاذت باللـه وسألته قلقة "مالك يا ابني؟" قال إنه رأى حلمًا سيئًا. فحذرته من أن يحكي حلمه لأحد، وأن يحرص على الصلاة بانتظام وينام على وضوء.

قام واغتسل، وارتدى ملابس المدرسة. لم يختف ضيق صدره من أثر الحلم ومن أثر أوامر أمه المتكررة. لم تكن لديه رغبة في الذهاب إلى المدرسة، لكنه لا يعرف كيف يعلن عن رغبته. ولما تذكر أن اليوم هو الخميس، تحسّن مزاجه إلى حد كبير، فسوف

fb/mashro3pdf

يتحرر من قيود النوم المبكر ويلعب حتى تكلّ قدماه، بعد أن ينتهي اليوم الدراسي.

ظل أحمد صامتًا طيلة الطريق إلى المدرسة. وحكى أشرف ما سمعه من أبيه، حيث قال إن أحمد جمعة لا يقدر على معاشرة امرأته، فهو نحيف أسمر وهي بضة بيضاء. فكيف له أن يعاشرها وهو ضعيف واهن؟ استطرد أشرف وقال إنّ أمها تذهب إلى شارع الهرم مرة واحدة في الأسبوع، وتعود بمال كثير. ثم ضحكوا عندما قلد أشرف طريقة كلام أبيه وأصدقائه.

- أمها مش رقاصة على فكرة

قالها أحمد غاضبًا، فنظروا إليه متعجبين، فندم على ثورته المفاجئة.

- وانت زعلان ليه؟ هي من بقية أهلك؟

قالها هاني. فابتلع أحمد ضيقه وصمت. وظل طيلة اليوم يأكله الندم على غضبه المفاجئ. وقد خاف أن يفتضح أمره وعلاقته بمروة.

في الحصة الثانية دخل الأستاذ إسلام البدين إلى الفصل، مستأذنًا من منى مدرّسة العلوم أن ينادي اسم طالبين. قرّب الكشف من عينيه الكليلتين بطريقة مضحكة، ونادى على "أحمد يوسف عاشور"

fb/mashro3pdf

و"أيمن شحاتة موسى" قائلًا إن المدير سوف يكرمهما غدًا في طابور الصباح، مع عدد من الطلبة الآخرين. أحس أحمد بالغبطة والفخر، يخالطهما شعور بالارتباك من عيون زملائه المصوبة نحوه. هنأته المدرّسة، واتسعت ابتسامتها فازدادت جمالًا.

ولما عاد أحمد إلى البيت أخبر أباه وأمه بما حدث. ولما لاحت علامات الفرح على وجهيهما، انتهز الفرصة وعاد يطلب إقامة عش الحمام على السطح كمكافأة على التكريم، فهو يعرف أن أباه سوف يتحجج في نهاية الفصل الدراسي بأن درجاته ليست جيدة بما يكفي، ولن يتم له ما يريد. أخذ من أبيه موافقة مبدئية، فنزل الشارع إلى أصحابه جريًا وهو يكاد يطير.

لعبوا حتى كادت الشمس أن تغيب. جلسوا منهكين على العتبة الرخامية النظيفة أمام بيت أم وليد. سمعوا خطوات نيفين الفتاة المنغولية ابنة أم وليد الصغرى، خرجت من باب الشقة ووقفت في الفناء. اقتربت منهم رويدًا رويدًا بخطواتها المترنحة. وقفت خلف البوابة تضحك وتصدر من أنفها أصواتًا. يسيل اللعاب من فمها المفتوح عن آخره. اقتربت منهم، أمسكت حديد البوابة بيدها اليسرى البيضاء اللينة، وفي يدها اليمنى دمية شقراء.

- البت دي ساعات بتخرج ملط!

قالها أشرف الجالس على الأرض، لووا أعناقهم ينظرون إليها.

fb/mashro3pdf

أمسكت بشعر حسن، فقام صارخًا يجري. فضحكوا من ردة فعله. تعالت ضحكات نيفين أكثر ونفرت أوردة وجهها ورقبتها. وضعت يدها اليسرى على رأس أحمد، فلم يتحرك، جذبت شعره بقوة وهي مستغرقة في الضحك.

- قوم يالا!

قالها هاني لأحمد الذي ظل جالسًا، تركها تعبث بشعره، ثم التفت إليها مبتسمًا وقال: "عايزة إيه؟" وهي لم تزل تضحك ويسيل من فمها اللعاب. أخرجت يدها من حديد البوابة وتلمست وجهه، فأبعدها برفق لما وجدها مبتلة بسائل لزج. كفت عن الضحك عندما لمس يدها. فردت أصابعها الخمسة أمام وجهه فرأى الأوردة الزرقاء في باطن كفها. وضعت رؤوس أصابعها في باطن كفه. أغلقت فمها تمامًا وكفت عن الضحك، وارتفع صوت لهاثها.

انتزع هاني الدمية من يدها بعنف، فصرخت بقوة وانتحبت، ووقف أمامها يهدد بنزع رأس الدمية.

- أمها لو جت هتاكلك

قالها سعد الذي اختبأ مع البقية في مدخل البيت المقابل خوفًا من أمها. خلع هاني حذاء الدمية وصراخ البنت يتعالى. تسلل أحمد من خلفه، انتزع الدمية منه ورماها عاليًا من فوق البوابة، لتسقط تحت الشجرة في منتصف الفناء.

fb/mashro3pdf

- واللـه يا ابن الكلب ما انا سايبك

صرخ هاني بغضب، وركض وراء أحمد. ابتعد صراخ نيفين، وأغلق أحمد بوابة البيت بعنف قبل أن يصل إليه هاني، ووقف يضحك من خلف البوابة. كاد هاني أن يسبه، لكنه تردد ونظر إلى الشرفة وقال: وحياة ربنا ما انا سايبك، تركه أحمد وصعد إلى البيت فرحًا، بعدما نجح في إغضابه، وفي إيقاف صراخ نيفين.

أحس أحمد باختلافه عن أصدقائه خاصة بعد تكريمه على مرأى ومسمع من المدرسة كلها. وبعدما اختاره الأستاذ رفعت في فريق إعداد الإذاعة المدرسية. قال لأصدقائه وقلبه مليء بالغبطة إن أباه قد اشترى ألواح الخشب ووضعها على السطح ليبني له عش حمام. كان هاني قد فهم أن سيرة مروة وأمها تغضبه، فأخذ يعيد ذات الكلام الذي يسيء لأمها. وقع أحمد في الفخ وغضب ثانية، وهدد أنه لن يجلس معهم لو خاضوا في سيرتها بسوء، فقال هاني دون تفكير:

- ما تخفى يا عم هو حد حايشك؟

رحل أحمد غاضبًا، معاهدًا نفسه ألا يجلس معهم أو يكلمهم مرة أخرى، أوجعه أنهم تركوه يرحل ببساطة، كأنهم تمنوا رحيله.

وفي الصباح صار ينزل مبكرًا، كي يذهب إلى المدرسة دون أن يلتقي بهم. غيّر طريقه، يدخل من الحارة ثم إلى شارع الأعصر، ومنه إلى شارع السلخانة، يعبر ميدان الشيخ حسانين ثم إلى المدرسة.

fb/mashro3pdf

توقف عن النزول إلى الفناء أثناء الفسحة. يجلس مع أستاذ رفعت وفريق إعداد الإذاعة المدرسية أو يتجول في الحديقة الصغيرة الخلفية. وكلما مر يوم دون أن يكلمه أحد ازداد غضبه وإصراره على ألا يعود إليهم مرة أخرى.

وبعد فترة حرص أن يروه يسير مع أصدقاء الصف في طريق العودة، وانشغل مع أبيه في بناء العش الذي اقتصر في البداية على خمسة أقفاص. وقد حذره أبوه من الاقتراب من دجاجات عمته. طالت الأوقات التي يقضيها أحمد مع مروة على السطح. تعجب أبواه من ذلك، لكنهما لم يسألا، ظنا أنه انشغل ببناء عش الحمام، وتمنيا ألا ينزل إلى الشارع أبدًا.

نجح أحمد مرة أخرى حين أقنع مروة أن تتخطى السور القصير الفاصل بينهما وتقف معه على سطح البيت. كان يتكلم بحماس. جذب انتباهها إلى العش الصغير الذي بناه مع أبيه. استعرض أمامها كل ما يعرفه عن الحمام وأنواعه. نجح في أن يظهر خبيرًا. قال إنّه سوف يشتري الحمام عما قريب، ولها أن تأتي متى تشاء كي تلعب به. لم يعد خائفًا من أن يراه سعد. بل على العكس، كان يتمنى أن يراه واقفًا مع مروة إذا أطل من السطح. تمنى أن يخبر بقية الرفاق، كان مغتاظًا منه أكثر منهم، فهو الجار والصديق الأقرب، ورغم ذلك لم يحاول أن يكلمه.

fb/mashro3pdf

ولأول مرة حركت فيه مروة ذلك الشعور القوي الغامض حين اختلى بها على السطح. ارتمت الشمس على جلبابها فشف عن جسدها. رأى حمالة الصدر المحكمة حول ثدييها الصلبين الصغيرين. قاطعت مروة نظراته لما انتبهت إلى نتوء بارز في بطن كتكوت يجري. وبحكم خبرتها التي اكتسبتها من جدتها، قالت إن هذا النتوء غريب. ولما نظر أحمد إلى الكتاكيت الصفراء الصغيرة، وجد بطونها خالية من النتوءات. سألها عما يجب فعله. فردّت بضرورة إزالة هذا النتوء. فقد يموت الكتكوت بسببه. تردد أحمد قليلًا، فليس له شأن بدواجن عمته، فضلا عن تحذيرات أبيه وأمه المتكررة من الاقتراب منها. لما رأت مروة تردده قالت:

- وقفت كده ليه؟

- أصل الفراخ دي مش بتاعتنا، دي بتاعة عمتي

- ما انا عارفة، بس حرام. كده يتعذب. أقولك.. قولها تقص الجلدة دي

- خلاص ماشي

عادت مروة إلى سطح دارها ونزلت. وقف أحمد مترددًا، لن يقول لعمته شيئًا بالطبع. فهو يكره أن يكلمها. لكنه أيضا لا يريد أن يترك الكتكوت الصغير ليموت.

fb/mashro3pdf

وفي النهاية حسم أمره، وجلب المقص. أمسك بالكتكوت خائفًا من أن تصعد عمته فتراه. حاول الطائر الصغير أن يتملص. أخذ يصأصئ كأنه يصرخ، وبعدما قص الزائدة الجلدية، حملها بين يديه وتفحصها. ثم ألقاها مشمئزًا ونزل إلى الشقة خائفًا يجري قبل أن تصعد عمته.

في اليوم التالي، قفزت مروة إلى السطح بعدما أقنعها أن تأتي كي ترى الكتكوت. تفاخر بأنه قص الزائدة الجلدية بمهارة دون أن يتألم الكتكوت. ميزته من خط بني في جبهته، حملته بين يديها واطمأنت على نجاح عملية الاستئصال.

نسيا أمره تمامًا وعاد أحمد يتكلم عن الحمام وأنواعه، حيث صار شغله الشاغل. فجأة أشار إلى سرب طائر فوقهما. وأخذ يعدد أنواع الحمام دون علم حقيقي. فكل ما يريده هو أن يبهرها. وهو يعلم تمامًا أن لا علم لها بالحمام وأنواعه، فله أن يقول ما يشاء.

في هذا الوقت من النهار تغمر الشمس السطح كله، ماعدا المسافة الواقعة بين جدار بيت الجيران الملاصق وعش الحمام الفارغ. فوقفا في هذا الجزء كي يحتميا من الشمس. فرش أحمد الحصيرة البلاستيكية وقال إنّه وأهله يقضون صباح الجمعة هنا. يحمل مع أمه وأبيه المراتب والأغطية، ويضعونها في الشمس ويجلسون عليها.

fb/mashro3pdf

جلسا صامتين، وقد استندا بظهريهما على الحائط. رأى أحمد رموش مروة الطويلة. وفي محاولاته لإثارة إعجابها قال إنّه سوف يحصل على مجموع عالٍ هذه السنة. حدثها عن التكريم الذي حصل عليه من مدير المدرسة في طابور الصباح على مرأى من الجميع، حكى عن إعداده لبرنامج الإذاعة المدرسية.

أراد أن يسألها عن عمل أمها. اعترته رغبة في لمسها، لكنه خاف من الصد. تكلما في مواضيع شتى. وتكلمت هي عن المكائد التي تصنعها زوجة عمها لأمها، تلك المرأة التي جاءت من الأرياف لتسكن منزلهم. كانت تدور مع أمها على الحمار، تبيع اللبن والجبن والزبد والبيض، والآن هي في المنزل، تريد أن تضع رأسها برأس أمها.

تركها تحكي وسمعها بوعي مشوش. تجرأ ومس يدها، فلم تلتفت وأتمت حديثها. تحركت فانحسر الجلباب. رأى ساقيها وقد نبتت فيهما شعرات قليلة. أعادت الجلباب بسرعة وقلبه يدق بعنف. لن يراه أحد من الأسطح الأخرى من هذه الزاوية. انحنى يقبلها على خدها، فقطعت حديثها وصمتت. أعطاها قبلة وهو يلهث من فرط الانفعال. ظلت صامتة ولم تتحرك. أعطاها قبلة أخرى أطول، ومد يده يلمس ثديها، فوجده صلبًا. انتفضت فجأة لما وضع يده على صدرها. ركضت وعبرت السور. وتركته شاعرًا بالخزي والخوف.

fb/mashro3pdf

مرت الأيام التالية ثقيلة. ظل لأيام ينتظر مجيء أبيها أو أمها إلى البيت ليخبرا أبويه بما فعل. انتظر العقاب القاسي والفضيحة في الشارع كله، انتفض قلبه كلما طرق أحد الباب أو سمع صوت البوابة الحديدية تفتح.

بعد يومين صعد إلى السطح خائفًا. أراد أن يراها ويعتذر لها عما فعل حتى لا تخبر أحدًا. لم يجدها فتلاشى أمله. فكر أن يرمي لها بورقة عليها اعتذار، لكنه خاف أن تراها جدتها أو أمها. عاد أدراجه، وتجددت فيه مشاعر الخوف والخزي.

صعد بعد عدة أيام فرأى الكتكوت ذا الشامة البنية على رأسه واقفًا جوار الحائط. لا يجري مثل البقية. يعلو صدره ويهبط ببطء وبشكل ملحوظ. يفتح عينيه ويغلقهما بصعوبة. تحوم حوله دجاجة تقأقئ ملتاعة. تريد أن تفعل له شيئًا لكنها عاجزة.

اقترب أكثر فرأى جواره دمًا متجلطًا. مسه بقدمه بحذر. فوجده قطعة لحم مدممة طرية، أدرك أنها قطعة منه. لكنه لم يعرف من أين أتت وهو سليم ليس به أثر لجروح. نظر على الأرض مدققًا أكثر، فرأى قطعة أخرى صفراء صغيرة لزجة. اشمئز ولم يعرف من أين أتت.

في اليوم التالي طرقت عمته الباب عصرًا. سمعها تكلم أباه بصوت عال وتطلب منه أن يصعد معها. سمع حفيف أقدامهما على

fb/mashro3pdf

السطح، فانكمش في غرفته خائفًا. دخلت أمه الغرفة، سألته عما فعل، فحكى لها كل شيء مرتعدًا.

رأى أبوه الكتكوت نائمًا على جنبه وقد تصلبت قدماه. وفريال تتكلم غاضبة بصوت عالٍ. لم يفهم في البداية ما دخل ابنه بالكتكوت الميت، حملته بين يديها وقربته من عينيه، قائلة:

- شوف ابنك عمل ايه؟

حاول يوسف أن يهدئها فلم يفلح. أشارت إلى شق طولي في بطن الكتكوت. قال إنّه سيشتري لها كتاكيت جديدة، وسوف يعاقب الولد ويمنعه من الصعود إلى السطح مرة أخرى، ولما نزل نادى ابنه، فوقف بين يديه مرتعشًا، سأله عما حدث، فأعاد أحمد ما قاله لأمه.

- وانت ايه اللي خلاك تيجي ناحيته؟ أنا مش قايلك متجيش ناحية حاجتها؟

قالها أبوه غاضبًا

- خفت ليموت

- أهو مات!

منع يوسف عاشور ابنه من الصعود إلى السطح مرة أخرى. وإمعانًا في عقابه، قال إنّه سوف يفكك عش الحمام الذي بناه، ولن

fb/mashro3pdf

يشتري أحمد الحمام، ولينس الأمر نهائيًا. وبعدما دخل أحمد غرفته، سألت سميحة زوجها عما رأى. فأبدى يوسف تعجبه من طريقة موت الكتكوت الغريبة. وكان تفسيره أن قص الزائدة الجلدية أحدث فجوة صغيرة اتسعت حتى صارت شقًا طوليًا في بطن الكتكوت. فاحتضر ببطء طيلة ثلاثة أيام، وقد تساقطت أعضاؤه الداخلية وتبعثرت في كل أرجاء السطح.

fb/mashro3pdf

ضاق محمد حسين بنظرات النسوة الريفيات المتفحصة، فترك سناء وخرج. حمد اللـه أنه أتى بعلبة السجائر وتوقع موقفًا مثل هذا. لم يكن مدخنًا شرهًا، لكن السجائر تقتل الوقت وتجنبه هذه المواقف المقيتة.

جذب نفسًا واحدًا وترك السيجارة في يده للهواء يأكلها. انعكست شمس العصر البرتقالية على ماء الترعة وهو واقف على ضفتها، في ظل شجرة الصفصاف العالية الكبيرة. وعلى الضفة الأخرى تمتد الحقول على مرمى بصره. سمع هديل حمامة فوق رأسه. نظر لأعلى فرآها واقفة على سطح البيت الطيني، المعروش بالقش والعروق الخشبية.

مرّ واحدٌ من أهل القرية على الضفة الأخرى ساحبًا بقرة. ألقى التحية عليه مضيقًا عينيه ليتفحص الغريب. ضاق محمد بنظراته، فأشاح بوجهه ولم يرد التحية.

fb/mashro3pdf

تذكر الأيام التي قضاها في بداية تعيينه في إحدى القرى النائية. يكره القرى ويضيق بفضول أهلها وخبثهم. سحب نفسًا آخر من السيجارة، وتذكر شعوره المؤلم بالغربة، وبوجوده دوما تحت عيون جيرانه، يتفحصونه ويراقبون منه كل شاردة وواردة. لم يستطع أن يتأقلم مع الريف أبدًا، وزاده ضيقا أنه لم يكن لديه عمل. فماذا يفعل مدرس موسيقى في مدرسة قرية نائية؟ فمرت أيامه ثقيلة وازدادت كراهيته للقرى وأهلها.

فُتح الباب الخشبي الكبير، خرجت امرأة مسنة وابنتها. تنحى جانبا، ألقى ما بقي من السيجارة. دخل غرفة الانتظار الواسعة في منتصف البيت، وعاد يجلس جوار امرأته، في انتظار الدخول إلى الشيخ جابر.

وافق على الذهاب إليه كي يثبت لامرأته حسن نيته ورغبته في العلاج. ولأن الشيخ في قرية بعيدة لا يعرفه فيها أحد ولن يخشى أن يراه أحد، تحمل المشوار الصعب، والطرقات الوعرة، ونفوره من الريف، لعله يجد لدى الشيخ جابر حلا لما أصابه دون سبب.

كانت سناء مشغولة في حوار باسم خفيف مع إحدى المنتظرات. ثم قالت موجهة كلامها لسناء إن فرج اللـه قريب وبفضل اللـه وبركات الشيخ جابر، سوف يرزقهما اللـه الذرية الصالحة عما قريب.

fb/mashro3pdf

نادتهما معاونة الشيخ. كان محمد يخشى لحظة الدخول. حاول أن يرتب الكلام الذي سيقوله كي يشرح ما ألم به. لم يسعفه الكلام، فقرر أن يترك كل شيء لوقته.

رأيا الشيخ جابر جالسًا في منتصف الغرفة، بجلباب رمادي، ولحية قصيرة سوداء داخلها الشيب في عدة مواضع. عيناه ضيقتان خبيثتان، رد التحية ودعاهما للجلوس. صمت قليلًا وهو يكر مسبحته ببطء.

رفع عينيه إلى محمد وسأله عن سبب المجيء. فحكى عما حل به مرتبكًا، مكتفيًا بالتلميح. هز الشيخ جابر رأسه ثم وضع عينيه في الأرض وقال إنّ اللـه جعل لكل داء دواء، وإن فرجه قريب.

أوصاهما بترديد اسم اللـه القوي ألف مرة في اليوم والليلة، وألا ينقطع ترتيل القرآن من البيت. أعطاهما ورقة مطوية، وكيسًا مليئًا بالزعفران، يضيفه إلى الماء ويغليه، ويكتب به الأوراد المكتوبة في الورقة، ثم يضع الورقة في ماء طاهر يستحم به مع زوجته قبيل الفجر. تسكب سناء ماء الاستحمام أمام باب الشقة، وتمسح بلاط البيت كل جمعة بعد أن تضع في الماء شبةً وملحًا، وأن تهتم بنظافة الأركان بالذات.

أعطى محمد حجابًا مكتنزًا ليضعه تحت رأسه حين ينام. أوصاهما أن تستمر هذه الطقوس ثلاثة أسابيع، على أن يعودا إليه

fb/mashro3pdf

في الأسبوع الرابع بعد أن يتم المراد. ثم قال مُنهيًا الحديث إن ما أصابهما ليس عملًا سفليًا ولا ربطًا، بل عين امرأة حسود.

عادا منهكين من المشوار الطويل والطرقات الوعرة، فناما واستيقظا قبل الفجر بقليل. جلست سناء تكتب الأوراد بالماء المُعصفر، وقرآن الفجر يسري في الليل من المساجد القريبة، وقد أحاط بالليل كله.

وقفا يستحمان في الطست النحاسي الكبير في المطبخ. وقد تلون الماء ببعض الحمرة من أثر الزعفران. سال الماء على نهديّ سناء فالتمعا. غسلت شعرها بقوة. حرصا أن يتخلل الماء كل شبر من جسديهما. أحاط محمد خصرها بيديه، قبلها فابتسمت بدلال ورفعت رأسها وهي تضحك.

دخل محمد الحمام وتوضأ. سمع باب الشقة يُفتح والماء يتناثر على الأرض. صلى الفجر وأطال السجود ودعا اللـه كثيرًا. كل ما يخيفه أن تملّ سناء وتفقد صبرها فتتركه وترحل. أكثر ما يخيفه أن تتركه وترحل، فلو فعلت، لانهارت حياته التي لا يقيمها سواها. فهو لا يستطيع أن يواجه الدنيا وحده.

وضع الحجاب تحت المخدة، ونام على جانبه الأيمن. فتحت سناء الراديو على إذاعة القرآن الكريم. دخلت الشرفة، وضعت الطعام والماء للعصافير، ورقدت جواره. سمعت صوت لهاثه،

fb/mashro3pdf

عرفت أنه لم ينم بعد، شعرت بقلقه وخوفه، فربتت على كتفه وقالت: ربنا هيفرجها ان شاء اللـه يا حبيبي، ماتقلقش. ثم استدارت وأعطته ظهرها ونامت.

كررا ما أوصى به الشيخ جابر كل ليلة. مسحت سناء الشقة بالماء المخلوط بالشبة والملح. وزادت من عندها أن جعلت الملح يطقطق على النار. رددا اسم اللـه القوي ألف مرة. انتظم محمد في الصلاة قدر ما استطاع. أطال السجود والدعاء حتى يتم له اللـه ما يريد. واستبدل سماع الموسيقى اليومي بسماع القرآن.

وفي ليلة الخميس الموعودة، دخلت سناء الغرفة تلبس ما نسيته منذ فترة طويلة. تعطرت وصففت فتنتها المشتعلة بعد، ومحمد جالس يشاهد التلفاز. ولما أغلقت الباب، اعترته رغبة جامحة ممزوجة بالقلق، بردت أطرافه، فدار في أرجاء الشقة. رأى الهاموش يحوم حول مصباح المطبخ، فأطفأه وأضاء مصباح الحمام. مر على الشبابيك يحكم إغلاقها. أغلق مزلاج باب الشقة. دخل غرفة المكتب كي يطمأن على الكمان. أخرج زجاجة البراندي من مخبئها، كما هي لم يقربها منذ شهور. لا يريد أن تراها سناء فتغضب.. خاف أن تزول البركة إذا شرب منها، ويضيع كل ما فعلاه طيلة الأسابيع الماضية فأعادها.

سمع أنين مفاصل باب غرفة النوم، فزادت رعدته وارتباكه.

fb/mashro3pdf

أغلق نور غرفة المكتب. رأى سناء وقد تجملت وارتدت قميصًا يكشف أكثر ما يستر. أكلها بعينيه، وزاد اهتياجًا لما رأى شعر إبطيها نابتًا قليلًا.

أغلق النور ونام جوارها، قبلها كثيرًا وامتص شفتيها، فتعالى لهاثهما. غمس يده في العجين الأبيض. لم يتغير فيه شيء ولم يصحُ النائم، لكنه استمر لعل التغيّر يحدث بعد قليل. أمسكت بيده ووضعتها على بئرها الراتق. قبلته بقوة واحتضنته، خفتت رغبته لما لم يحدث له شيء. توسلت إليه وهي في غمرة غيبوبتها أن يتقدم أكثر. انطفأت أحشاؤه تماما، وهي تموء تحته وتتلوى. طلبت منه بصوتها الممطوط المتهالك أن يوغل فيها، شله إحساسه بالخيبة فتمدد على ظهره لاهثًا. هدأ أنينها رويدا رويدا، حتى صمتت تماما. أراد أن يقول شيئًا فلم يجد ما يقوله، خرج وجلس على أريكة الصالة.

هدأت ضربات قلبه، دارت في رأسه خواطر واحتمالات كثيرة. الآن صار تطليقها واجبًا. لم تفلح وصايا الشيخ جابر ولا أحجبته. ارتجف لما تخيل حياته بدونها، وارتعب عندما تخيل أن الناس عرفوا سبب الطلاق. تخيلها بعد الطلاق وقد تزوجت من آخر، تنام في أحضانه وتقارن بينهما. تخيلها تخونه إذا أصر على عدم تطليقها، ولو رفعت قضية ضده ستكسبها من جلسة واحدة، ستقول أمام الجميع في المحكمة إن زوجها صار عنينًا لا يقوم بواجباته الشرعية.

fb/mashro3pdf

حاصرته الخواطر السيئة والوساوس، ثم لاح له أمل قد يكون الأخير. عليه أن يذهب إلى طبيب. فبهذا يستطيع أن يحتفظ بها ولو لمدة قصيرة. أفرحته بارقة الأمل وطردت كل الوساوس. فتح باب غرفة النوم، وضع ركبتيه على السرير، وضع يده على كتفها، أراد أن يواسيها ويعتذر. وفي الإضاءة الشحيحة الآتية من الحمام، رأى آثار الدمع على المخدة. دفعت يده بقوة، فلم يستطع أن يقول شيئًا.

دخل غرفة المكتب ينهكه الإحباط. فتح الشباك كي يتسلل إليه الهواء البارد. فتح الراديو وجلس في الظلام. انسابت الموسيقى إلى روحه المثخنة. عرف أن المقطوعة لدوبوسي، عرفها من نغماتها المنطقية الرقيقة. تمدد على الأريكة، حدث نفسه ألا حل الآن إلا الذهاب إلى الأطباء. سوف يذهب إلى أشهر وأمهر طبيب في المدينة. غزت قلبه الغبطة مرة أخرى، فربما نجح الأطباء فيما فشل فيه جابر النصاب. كل ما عليه هو أن يكون شديد الحرص. وألا يراه أحدٌ داخلًا أو خارجًا من العيادة. ولو رآه أحد، فليجهز إجابة للسؤال وليتعلل بالذهاب إلى طبيب أمراض الذكورة لسبب أو لآخر.

ارتاح قليلًا للسيناريو الأخير الذي رتبه. لكنه لم يعرف هل ستتحمل سناء أكثر أم لا، وهل سيكفي اعتذاره عما حدث. ظل يفكر حتى نام من فرط الإرهاق والإحباط والخيبة.

fb/mashro3pdf

في أحد الصباحات الشتائية شديدة البرودة، رفض أحمد أن يرتدي المعطف الأسود الذي يثقل حركته، ويجعله مختلفًا قليلًا عن زملائه، اكتفى بتيشيرت عالي الرقبة تحت قميص المدرسة، وجاكيت خفيف.

لما خرج إلى الشارع، صدم صدره برد الشتاء الصباحي الثقيل. رأى عصفورة واقفة أمام بوابة البيت. تعجب لأنها لم تفزع ولم تطر من حركته. وقف يتابعها متربصًا. حاول أن يمسكها، قفزت عدة خطوات حتى وقفت في منتصف الشارع. اقترب منها خطوتين، ظلت مكانها، ظن أنه يستطيع أن يمسكها، فطارت بسرعة بعيدًا عنه ووقفت على سلك الكهرباء تزقزق.

في الفترة الأخيرة، وجد أحمد نفسه وحيدًا من دون أصدقائه ومن دون مروة. مرت ساعات المدرسة أثقل وطأة. وكلما هرب إلى خياله، لم يجد سوى الحوادث الأخيرة، فيتجدد فيه الخوف.

fb/mashro3pdf

يستمع بانتباه إلى شرح الدروس المملة مجبرًا، كي ينسى، وكي يهرب من شروده ومن تذكر ما حدث.

عاد من المدرسة إلى البيت الخالي. اعترته رغبة شديدة بالنوم. رأى في نومه أناسًا يتحركون في الغرفة. لم يستطع أن يرفع عينيه كي يرى وجوههم. لم ير منهم سوى الأقدام. حاول أن ينادي أمه فلم يستطع. رأى نور الغرفة مفتوحًا رغم أنه أغلقه قبل أن ينام. ظن أن أباه قد أتى مع أصدقائه أو مع أحد الجيران.

تعجب من حركة الموجودين في الغرفة، كانوا يسرون ولا يمشون. انقلب على ظهره بصعوبة، رأى قطًا بنيًا سمينًا واقفًا على الشباك المطل على المنور. رآه ينظر إليه من وراء السلك. تعجب من وقفته، فكيف يقف على الشباك هكذا؟ سقط القط في المنور فجأة، ثم عاد ينظر إليه وقد فُقئت إحدى عينيه وامتلأ جسده بالجروح من أثر السقوط على قطع الخشب المدببة المليئة بالمسامير.

استيقظ على صوت أمه تفتح باب الشقة. سألها هل أتيت من قبل؟ فنفت. ظل صامتًا يسترجع ما رأى. لم يكن ما رآه حلمًا. فقد كان كل شيء واضحًا للغاية. حكى لها عما رأى، فتغير وجهها لحظة. ثم دخلت تبدل ملابسها، قالت إنه كابوس، فليستعذ بالله وليتركها الآن حتى تعد طعام الغداء.

على المائدة، شعر أحمد بآلام في حلقه، فلم يستطع أن يتم غداءه.

fb/mashro3pdf

عرفت أمه أن هناك شيئًا ما عندما رأته يأكل ببطء على غير العادة. هاجمته رغبة في النوم مرة أخرى فدخل لينام. استيقظ ليلًا، سمع صوت التلفاز في الخارج. لم يستطع أن يرفع صوته بالنداء. ظل ممددًا على السرير فاتحًا عينيه. مرت أمه من أمام الغرفة ذاهبة إلى المطبخ. ناداها بصوت خفيض متعب وطلب ماءً.

وضعت أمه يدها على جبينه، فوجدت حرارته مرتفعة قليلًا. جاءته بالدواء، تناوله وعاد للنوم. قالت إنه في الصباح سيكون أفضل حالًا. استيقظ على صوت آذان الفجر، والمؤذن ينادي أن الصلاة خيرٌ من النوم. كان يكره أن يستيقظ في هذه الساعة. يرعبه صوت المؤذن. يحس أن المؤذن يراه. طالما أنه يسمعه بكل هذا الوضوح، وكأنه صوت أحد ملائكة اللـه الجبارين. أغلق عينيه، وأجبر نفسه على النوم من فرط الرعب.

أيقظته أمه للذهاب إلى المدرسة. فوجدت حرارته مرتفعة أكثر من الليلة السابقة. فتح عينيه بصعوبة. استيقظ من أثر يدها الباردة على جبينه، وسرت رعدةٌ باردةٌ في عموده الفقري. شعر بالإعياء، وببلعومه ملتهبًا. سمعها تخبر أباه أنه مريض، وأنها لن تذهب إلى العمل اليوم.

بدلت ملابسها وجاءته بالكمادات الباردة، تسري القشعريرة في بدنه كلما وضعتها على جبينه. أجبرته على الأكل حتى يتحمل

fb/mashro3pdf

جسده المضاد الحيوي. شعر بصعوبة بالغة أثناء البلع. يغيب وعيه ويعود. وحين يفتح عينيه ويجد أمه جالسة جواره يطمئن. وكلما نظر في الساعة أدرك أنه ينام لفترات طويلة، وإن ظنّ أنه يغفو قليلًا.

في نوبات الغياب، رأى أحلامًا غريبة ومشاهد متفرقة. استيقظ ليلا فسمع أباه وأمه يتهامسان. لم يميز كلامهما. طلب الماء بصعوبة وقد جف حلقه. أعادت أمه وضع كمادات الماء البارد حتى تنخفض الحرارة.

رأى نفسه في المنام واقفًا في قارب خشبي مع أصدقائه، القارب مليء باللمبات الملونة كأنه في احتفال ما، يتكلم مع أصدقائه عن الأفلام التي يحبها، ممسكا بقضيب حديدي في سقف القارب. سخروا منه وتهكموا عليه دون سبب. غضب غضبًا شديدًا وتركهم وقفز في الماء. اجتاحته القشعريرة، وفجأة شعر بالقارب يتحرك ببطء. تمسك بحبل مربوط إلى القارب، خشية أن يمضي بمن فيه ويتركه في الماء والظلام وحيدًا.

زادت سرعة القارب تدريجيًا، فشعر بالخوف الشديد، وتمسك بالحبل أكثر. ارتفع القارب وطار ناحية قمر كبير جدًا وقريب. وأحمد معلق بالحبل يخشى السقوط من هذا الارتفاع. رأى تحته خرائب وبيوتًا مهدمة. اقترب القارب الطائر من تل عالٍ، فوقف

fb/mashro3pdf

أحمد على التل وجذب القارب من الحبل الطويل كي يوقفه. انقطع الحبل مصدرًا صوتًا كأزيز الكرباج، فوجد أحمد نفسه يقف وحيدًا على التل العالي المشرف على الخرائب والبيوت المهدمة، أمام القمر الكبير القريب.

نزل من أعلى التل، وبعد عدة خطوات، اعترض بعض الأطفال طريقه. رشقوه بالحجارة، فركض هربا منهم. اختبأ في أطلال بيت متهدم، لم يدخلوا وراءه، وقفوا في الخارج دون أن يتوقفوا عن رشقه بالحجارة. سمع صوت هتافاتهم المتوحشة التي لم يفهم منها حرفا. تعجب، ولم يفهم لماذا يريدون إيذاءه.

هدأت صرخاتهم، ثم رأى يد امرأة تمتد إليه. أمسك بها وخرج من مخبئه. رأى الأطفال واقفين على مبعدة. قالت له المرأة التي لم ير وجهها ألا يخاف، وجاء في قلبه أنها جميلة جدا. ابتعدت به عن الأطفال الشرسين، وسارت به وسط الخرائب. ثم فطن أحمد إلى أن الثقوب الصغيرة في جدران البيوت خلفتها طلقات رصاص، والثقوب الكبيرة أحدثتها طلقات المدافع. وكان كلما سار غمرته الطمأنينة أكثر.

شعر أن هناك كثيرًا من العيون تراقبه. نظر إلى الأعلى فرأى كل الشبابيك والشرفات مليئة بالناظرين. رأى امرأة خمسينية تحمل رضيعًا بطريقة خطرة، كأنها تدليه من الشباك، وفجأة سقط الرضيع

fb/mashro3pdf

من يديها، فمات فورًا حين ارتطم بالأرض. ولولت وانتحبت، والرضيع ملقى على وجهه وقد ابتلعته الأرض.

نزل أحمد على ركبتيه في مكان سقوط الرضيع، ورغمًا عنه أخذ يتمتم بتعاويذ لا يفهمها. فانشقت الأرض وخرج الرضيع نائمًا على ظهره يضحك. حمله بين يديه، وسمع صوت المرأة التي أخذت بيده تضحك فرحًا، ثم جاءه صوت جهوري محيط بكل شيء، كأنه يـأتي من لا مكان قائلًا: "لو لم تكن نبيًا لما صار كل هذا".

ظل أحمد على حاله عدة أيام. لم تنخفض حرارته، لم تُجدِ كمادات المياه الباردة، ولا الأدوية. استيقظ ساعة الفجر، رأى أمه تدخل الشرفة. سمعها تدعو اللـه أن يعجّل بشفائه وأن يهديه وأخته، ولا يُشمّت فيهما أحدًا، وأن يبارك فيهما ويصرف عنهما كل سوء. سمعها تبكي وتنشق الدمع النازل من أنفها. غاب عن الوعي قليلًا، ثم استيقظ عندما أحس بكف باردة على رأسه. سمع والدته تقرأ آية الكرسي والفاتحة والمعوذتين، دعت اللـه كثيرًا، جست خلف أذنه، وسمعها تقول لأبيه، إنها ستذهب به إلى الطبيب صباحًا.

سنده أبوه وساعده على النزول. ركب في أريكة السيارة الخلفية غير واع تمامًا لما يحدث. كان شبه نائم وأزعجه أن يراه الناس على هذه الحال، صعد إلى عيادة الطبيب مستندًا على أبيه وأمه. مر

fb/mashro3pdf

وقت الانتظار طويلًا. لا يستطيع أن يجلس فترة طويلة، يتألم وعين أمه يملؤها الخوف. أسند رأسه على كتف أبيه. لم يعرف هل نام أم غاب عن الوعي، حتى أيقظاه للدخول إلى الطبيب.

لسعته سماعة الطبيب الباردة. قلبه ظهرًا لبطن. ساعدته أمه على إعادة ملابسه إلى ما كانت عليه. حاول أن يسير على قدميه وحيدًا فغلبه الدوار. استند على الحائط وترك كتف أمه. زادت آلام حلقه وشعر بأوجاع تجتاح عظامه. وكلما اهتزت السيارة بقوة، تحرك مخه داخل جمجمته فشعر بألم رهيب.

لم ينفع دواء الطبيب بعد أسبوع. نهش الخوف قلب أبويه. لم يعرفوا ما به. وضعوه في الماء البارد في البانيو رغم رفضه. ارتجف واصطكت أسنانه. أراد أن يصرخ فلم يستطع. ضغط أبوه على رأسه برفق حتى يغطس ويطال الماء كل جزء في جسده.

طالت مدة مرضه. لم يعرف أحد ما ألم به. استيقظ ذات ليلة على صوت أم فوزي، لم يفتح عينيه، ظن أنه يحلم أو يهذي. سمعها تقول لأمه كلامًا عن شجرة ينز منها لبن مر. نزلت أم فوزي وغاب عن الوعي مرة أخرى.

وفي السادسة صباحًا أيقظته وهي تعتذر بصوت متهدج شبه باكٍ. ساعدته على ارتداء ملابس ثقيلة. وعيه مشوش. يشعر بثقل في كل حواسه، استند على كتفيها حتى نزل. وأبوه جالس في

fb/mashro3pdf

السيارة يسخن محركها الذي يحتاج فترة طويلة كي يدور في هذا البرد القارص.

كان يرى السماء من زجاج السيارة الخلفي وهو راقد. وبعدما غادرت السيارة، الشارع، لم يعد يعرف إلى أين تسير. يرى الغيوم الثقيلة تملأ السماء، وكلما ارتجت السيارة شعر بألم رهيب في رأسه. يئن فتلتفت إليه أمه وتقول: "معلش يا ابني.. معلش خلاص هانت".

تركت السيارةُ الطريق الأسفلتي ودخلت طريق القرية الوعر. صارت الاهتزازات غير محتملة، فأطلق صرخة ألم عالية. قال أبوه لقد وصلنا وعليه أن يتحمل دقائق قليلة. وأمه تنظر إليه خائفة، لا تملك أن تفعل له شيئا. أنبت نفسها لأنها كبدته عناء هذا المشوار الصعب. لولا تأكيد أم فوزي على أن لبن الشجرة المر لابد أن يشرب طازجًا بعد أن ينزل من جذعها مباشرة.

بسكين صغيرة صنع يوسف عاشور شقًا طوليًا في جذع الشجرة الضخم. أزال جزءًا من اللحاء، فنز اللبن الأبيض كثيفًا لزجًا. امتلأ الوعاء الصغير بقدر كافٍ، فأعطاه لسميحة. نظر يوسف عاشور إلى السماء المليئة بالغيوم، والهواء البارد يصفع وجهه. كل ما يخشاه أن تمطر فيزداد طريق العودة صعوبةً، ويتحول الطريق الترابي إلى وحل وتنغرز فيه عجلات السيارة. وضع بضع قطرات

fb/mashro3pdf

على إصبعه، أراد أن يختبر اللبن قبل أن يشربه الفتى، تفله سريعًا، وقال لسميحة وقد تقلص وجهه، كيف سيشرب الولد هذا اللبن المر؟ فقالت إن هذا هو الحل الأخير كي تزول الحمى.

أقعدت سميحة ابنها وفتحت فمه. وما إن لامس لبن الشجرة لسانه حتى كاد يمجه من فرط مرارته. تقلص وجهه وأمه تعتذر وتهون عليه وتقول: معلش.. ايش رماك ع المر يا حبيبي.. معلش عشان تبقى كويس.

أغلق أحمد فمه لا إراديًا. فعادت تترجاه كي يجرع اللبن العلقم. شرب جرعتين كبيرتين غصبا. أعطته جرعة ماء كبيرة كي تزول مرارة حلقه، وأبوه واقفٌ ينظر إلى المدى تارة، وإلى السماء تارة أخرى، خوفًا من المطر الوشيك. يحدث نفسه أن كل شيء لابد أن يتم بسرعة، فالمسافة بعيدة من "كفر الموجي" إلى المدينة، أو على الأقل، عليهم أن يخرجوا من طريق القرية الترابي سريعًا.

بعد عدة أيام، تحسنت حالته تحسنًا طفيفًا. يأكل ويتكلم بصعوبة. يغشى رأسه الدوار والصداع من الحركات المفاجئة. كانت أمه قد نوت شيئًا لم تخبر به زوجها، وبعد خروجه صباحًا مع ابنتهما الصغيرة، أطعمت أحمد وأعطته الدواء. ولما نام اطمأنت، ثم خرجت وهي تأمل أن ترجع سريعًا قبل عودة زوجها.

fb/mashro3pdf

في الطريق تداعت ذكريات سميحة عن خالتها. تذكرت كيف خلصتها مما ألمّ بها، كادت الحمى أن تفتك بها، بعد أن دخلت تجربة لم يكن لها يد فيها.

لاحظت جارتهم التصرفات الغريبة لزوج ابنتها. كان يسهر طيلة الليل في غرفة وحده. ولما راقبته سمعته يحدث امرأة ما. صارحته فأنكر، قالت لأمها فارتابت، حكت بدورها لإحدى العرافات، فقالت إن زوجها لا بد متزوج من جنيّة.

في غياب الزوج، جاءت العرافة إلى بيت جارتهم، وطلبت منهم أن يأتوا ببنت لم تبلغ بعد. وقع اختيارهم على سميحة، البنت الصغيرة التي تلعب أمام البيت مع بقية الأطفال. أعطوها الحلوى والملبس. قرأت العرافة التعاويذ على كوب ماء. طلبوا من سميحة أن تنظر فيه وتخبرهم بما تراه. وهي إلى الآن تظن أن ما رأته لم يكن إلا حلمًا.

fb/mashro3pdf

ظلت تنظر دون أن ترى شيئا في البداية. وبعد حين تجمعت رواسب الكوب وكونت مشهدًا عجيبًا. رأت حاشيةً وعبيدًا سودًا، رأت موكبًا مهيبًا وسمعت النفير. جاءت أميرة جميلة بشعر أسود ناعم طويل وحرملة حمراء. جاءت وسط خدامها، تقدمتهم وجلست على عرش كبير، في وسط الكوب تماما.

قالت سميحة ما رأته للنسوة المتجمعات حولها، فعم صمت متوجس مهيب. ونقلت ما تقوله الجنيّة، فتبدلت وجوه النسوة. قالت الأميرة إنها زوجته ولن تسمح لأي سيدة أخرى أن تقترب منه.

قالت العرافة لسميحة أن تقول لأميرة الجن أن تتركه، فالرجل متزوج وله بيت وأبناء، وهي بهذا سوف تخرّب البيت.

غضبت الأميرة، فتعكر الماء في الكوب فجأة. لم تستطع العرافة مجابهة غضبها. حضرتها ولم تستطع أن تصرفها. هددت الأميرة بالنيل منهن جميعا. ارتعدت سميحة لما رأت خوف النسوة. شعرت أن هناك خطرًا يتهددها. وفجأة سُمعت طرقات عنيفة على الباب، وجاء صوت أم سميحة صارخةً من الخارج.

كانت أمها قد بحثت عنها في الشارع فلم تجدها. أخبرتها إحدى البنـــات أنها في بيت الزهيري. ولأنهـــا كانت تعرف بما يدور في البيـــت وبما تنتويه زوجة عبد الرحمن الزهيري، ذهبت إلى البيت جريـــا. فتحت إحداهـــن الباب، فدخلت أم ســـميحة غاضبة غضبًا

fb/mashro3pdf

شـــديدًا. ســـبّتهن جميعًا وجذبت البنت من ذراعها بعنف، صفعتها على وجهها، وقذفت كوب الماء في الحائط وخرجت.

صرخت في الشارع وشهرت بهن، ثم قطعت علاقتها معهن للأبد. بعد تعرض سميحة لهذه التجربة، أصابتها الحمى لأيام طوال، ولم تنقذها سوى خالتها بهية، صاحبة الكرامات. قالت إن غضب أميرة الجن شمل كل الموجودات، بمن فيهن سميحة الصغيرة التي لا تفهم شيئًا. مستها النار التي خلقت منها الجنية، فعششت الحمى في دمها وعظامها.

طرقت سميحة باب خالتها. سمعت صوتها الواهن من الداخل يسأل عن الطارق، فأجابت وانتظرت أمام الباب طويلًا. ارتمت سميحة في حضنها وبكت، أجلستها على الأريكة وطمأنتها. هدأت قليلًا لكنها لم تكف عن البكاء. حكت من بين دموعها ما حدث للولد، وسألت خالتها بطريقة أقرب إلى التوسل:

- هي لسه بتجيلك؟

لم ترد الخالة، بل سألتها إن كانت تحب أن تشرب شايًا. فطنت سميحة إلى أن هذا أمر بالابتعاد. وقفت سميحة حائرة في مطبخ خالتها الضيق. لم تعثر على الشاي والسكر بسهولة. غسلت الملاعق والأكواب. ملئت البراد بالماء ووضعته على النار. وفجأة سمعت صوت طرقات متتابعة على الجدار، إشارة لحضور أحد خدام خالتها.

fb/mashro3pdf

تسمرت في مكانها وتعالت دقات قلبها بعنف. سمعت صوت غليان الماء، فأطفأت الموقد، أصاخت السمع فلم تسمع شيئًا. صبت الماء الساخن ببطء وبيد مرتجفة. احمرّ الماء في الأكواب فأضافت السكر ووقفت تنتظر خائفة من الخروج.

- تعالي يا سميحة.

خرجت ووضعت الصينية بينهما على الأريكة. رشفت خالتها الشاي، ثم وضعت الكوب على الصينية وقالت:

- الواد نفسه مكسورة.. الصديد سرح في دمه

- محدش زعله يا خالتي

- سيبوه.. هو هيروق لوحده

اكتفت الخالة بهية بهذه الكلمات القليلة وصمتت، أرادت سميحة أن تستنطقها أكثر لكنها لم تجرؤ. سألتها خالتها عن أحوالها وعن زوجها والبنت. سألتها عن أخواتها وهي ترشف الشاي ببطء. ربتت على كتفها وواستها وقالت لها أن تتفاءل خيرًا.

وبعد حين ظلتا صامتتين طويلًا، وسميحة تنقل عينيها بين الأرض والأريكة. تخاف أن تجول بنظرها في أرجاء الشقة الضيقة، فربما ترى ما لا تحب أن تراه. وبعدما انتهتا من احتساء الشاي، سلمت سميحة على خالتها ورحلت.

fb/mashro3pdf

قبل انتهاء العمل بأيام، قال السيد للإمام الفارسي إن اللـه فتح لهما باب رزق واسعًا. فجاره الثري "رزق بك المرشدي" يريد أن يجهز إحدى الشقق في بيته، وعليه أن يذهب كي يعاينها ويقابله.

قال السيد لمعلمه فلنذهب الليلة وما سيطلبه الإمام سوف يدفعه رزق بك، حتى ولو طلب خمسة جنيهات في المتر. كان يتكلم ولعابه يكاد يسيل على المقاولة الجديدة.

ذهب الإمام في السابعة مساءً، ووقف أمام ضريح سيدي عبد القادر كما اتفق مع صبيه. رأى بقايا الشموع الذائبة على الشبابيك. واعتبر ذلك فألًا طيبًا، فتلك كانت من المرات القليلة التي يرى فيها الضريح مضاءً.

وصل السيد متأنقًا متحمسًا، أشار إلى البيت المواجه للضريح وصعدا. رأى الإمام مظاهر الثراء في البوابة الضخمة ودرجات السلم الرخامي. نظر إلى الأسقف تلقائيًا ومرر أصابعه على الجدران.

fb/mashro3pdf

طرق السيد الباب. فتحت لهما امرأةٌ بيضاءٌ بضةٌ في أوائل الأربعينيات. سأل عن رزق بك بأدب جم، فدعتهما للدخول. جلسا في غرفة الصالون ذات الأثاث الفخم، في انتظار لقاء البك. أعاد السيد على مسامع الإمام ما قاله من قبل بصوت خفيض. لابد وأن يطلب سعرًا عاليًا في المتر، فالرجل ثري ومساحة الشقة كبيرة.

- نشوفها الأول يا سيد

قالها الإمام كي يسكته وهو يبحث بعينيه عن منفضة سجائر. دخلت السيدة الأربعينية حاملة صينية عليها كوبا عصير وقطع الكيك، فحملها عنها السيد وشكرها الإمام بعد أن خطف نظرة إلى عينيها الرماديتين، وحاجبيها المزججين الشبيهين بجناح اليمامة.

تردد الإمام في طلب منفضة سجائر فأعاد السيجارة إلى العلبة. شرب السيد كوبه دفعة واحدة، وأخذ يتكلم بفم مليء بالكيك. قال إن هذه أخت البك الصغرى، مطلقة منذ زمن، يأتي أولادها لزيارتها من آن لآخر من بورسعيد، ثم صمت تمامًا لما سمع صوت خطواتها تقترب. فتحت السيدة باب الصالون ودعتهما لمقابلة أخيها.

دخلا الشرفة الواسعة وسلما على الرجل بتبجيل. لاحظ الإمام أن رزق المرشدي لم يستطع أن يطبق كفه الباردة أثناء المصافحة، ولما أمعن النظر رأى أصابع يديه معوجة كعنق البطة.

fb/mashro3pdf

جلسا صامتين وانتظرا أن يبدأ بالكلام. وجلستْ أخته في الصالة المظلمة على مقربة تستمع. تكلم رزق المرشدي فجاء صوته رغويًا. قال ما يعرفانه مسبقا. يريد أن يجهز الشقة العلوية. يعرف البك أن السيد يعمل في المعمار ولما سأله قال إنّ أبا سعد هو الخير والبركة، فشكره الإمام بخجل.

قرب منهما رزق أطباق الفول السوداني والترمس. أكل الإمام بعض حبات إكرامًا للرجل وهو ينظر إليه من حين لآخر، وقد ارتمت إضاءة عامود الإنارة البيضاء على وجهه الأبيض السمين وعلى صلعته اللامعة. وبعد حين طلب الإمام أن يرى الشقة. صعدت أمامهما أخته بالمفتاح. ظل الإمام ينظر إلى ردفيها اللدنين، ولما وصلوا فتحت الباب ورفعت مفاتيح الكهرباء، ثم دخل الإمام خلفها بيمينه، يسمى اللـه في كل خطوة ويحرص أن تسمعه.

كان السيد يتحرك بحرية إلى حد ما، يكاد يتقافز من فرط الحماس. جاب الإمام أرجاء الشقة. فتح باب الشرفة، ثم قدّر مساحة الشقة بمجرد النظر. سأل كم تبلغ مساحتها كي يتأكد من صحة حساباته. فقالت السيدة إنها تطابق مساحة الشقة السفلى، حوالي 250 مترًا. فهز الإمام رأسه معلنًا انتهاءه.

عادا للجلوس في الشرفة مع رزق المرشدي الذي أتى على الفول والترمس، فجاءته أخته بطبقين آخرين وجاءتهما بأكواب

fb/mashro3pdf

المياه الغازية، ثم عادت لجلستها تتابع الحوار.

أشعل رزق سيجارة مارلبورو وأعطى الإمام واحدةً فأشعلها وأخذ ينظر إلى خيوط الدخان في ضوء عامود الإنارة. يحب رزق بك أن يطفئ نور الشرفة والصالة ويكتفي بالنور القادم من العامود الملاصق للشرفة. ألح عليهما أن يشربا المياه الغازية، شرب الإمام جرعة ووضع الكوب على الصينية، فسأله رزق:

- ها.. قلت ايه؟

- اللي تشوفه يا باشا.. مش هنختلف

- لأ إزاي.. قول.. هتاخد كام في المتر؟

صمت الإمام قليلًا ريثما يرتب الكلام، كان قد حسم أمره مبكرا. جذب نفسا عميقا، ثم نفثه وقال:

- شوف يا باشا، الشقة كبيرة ما شاء اللـه وهتاخد شغل كتير، أكتر من شهر، شوف حضرتك، أنا هاخد 3 جنيه في المتر، وحضرتك ممكن تسأل بره برضه.

هز رزق رأسه وهو ناظر إلى الأرض. وأد السيجارة في المنفضة وقال:

- هتحتاج قد ايه مونة؟

fb/mashro3pdf

- لحد دلوقتي 2 طن إسمنت وعشرة متر رمل. وأكيد هنحتاج تاني

- طب ما تجيب الحاجة مرة واحدة

- عشان الشقة هتبقى زحمة بس.. عشان أعرف اشتغل

- وهتبدأ امتى؟

- من يوم السبت أو الحد بالكتير ان شاء اللـه. اخلص الشغل اللي ف ايدي، وتكون حضرتك جبت المونة.

- اتفقنا، ع البركة، وعلى معادنا الاسبوع الجاي. ولو في أي تغيير قول للسيد وهو هيبلغني.

- حاضر يا باشا.

شرب الإمام ما تبقى في كوبه، والسيد جالس جواره يفرم الفول السوداني والترمس بضروسه غاضبًا. استمرت فترة الصمت قليلًا، ثم استأذن الإمام في الخروج. سلم الاثنان على الرجل ونزلا.

وبعدما تخطيا ضريح سيدي عبد القادر بقليل، التفت السيد إلى الإمام وقال غاضبًا:

- 3 جنيه يا اسطى؟ 3 جنيه؟ واللـه لو طلبت خمسة كان وافق. ده اللي قلتلك عليه؟

fb/mashro3pdf

أخــرج الإمام علبة الســجائر الكليوباترا مــن جيب الجاكيت، وأشــعل سيجارة. فَزِعا لما جرت أمامهما فجأة قطةٌ بنيةٌ تحمل في فمها شيئًا ما تطاردها قطة أخرى.

- ما تبقاش اهبل يا سيد. الراجل أكيد سائل وعارف الاسعار

- يا عم واللـه لا سأل ولا حاجة، محدش دخل البيت غيرنا

- كُل عيش يا سيد ومتبقاش طماع. كل عيش

لم يجد السيد ما يقوله. لقد تم الاتفاق ولن يتغير شيء. سار جواره صامتًا يكاد الغيظ يأكله من تصرفات معلمه الحمقاء.

افترقا عند ناصية الشارع. دخل السيد إلى شارع جانبي، وأكمل الإمام طريقه. عبر شارع بورسعيد ومنه إلى شارع السلخانة. ولما وصل إلى الميدان، رأى ضريح الشيخ حسانين الكبير بعد التجديدات. تلوّنت جدرانه بالأصفر المائل للبني، وزجاج الشبابيك الأخضر. وقد شملت التجديدات الحديقة الدائرية في منتصف الميدان.

لم يرد أن يمر من أمام المقهى. فلن يستطيع أن يرفض دعوات الجلوس. دخل شارع الأعصر، وعبر الحارة دخل الشارع. جلس مع أمه في المحل. أخبرها عن المقاولة الجديدة وطلب منها أن تكثر الدعوات. فبفضلها جاءته مقاولتان في شهر واحد. رفض أن يأكل، وهو ينظر إلى جدران المحل القديمة بطلائها البائس. صار تجديد

fb/mashro3pdf

المحل لازمًا. قال لأمه إنه سوف يرسل لها غدًا مجدي النقاش. ثم صعد لينام مرهقًا، وقلبه مليء بالحبور والغبطة.

fb/mashro3pdf

تحسنت حالة أحمد تدريجيًا وانخفضت حرارته. استيقظ ذات يوم ليجد ملابسه وقد امتلأت بعرق غزير. جاءته أمه بالحساء المليء بالشعرية لسان العصفور وقطع الدجاج. خفت آلام البلع إلى حد كبير، وبعدما انتهى من الحساء، شرب الشاي الدافئ بالليمون. وبعد أيام صار قادرًا على الذهاب إلى المدرسة.

كان يتحرك في فناء المدرسة شاعرًا بدوار خفيف. ذكرته أرضية الفناء الرملية بالحلم الذي رآه. كان يتذكره واضحًا جليًا، كأنه حفر على خشب. أراد أن يحكيه لأم فوزي، لكنه خاف ألا توليه اهتمامًا.

جاءه سعدٌ عند الكانتين، وضع يده على كتفه وسأل عن صحته. عرف بمرضه من جدته ولم يستطع أن يزوره، ربما خجلًا من أبيه وأمه. وفي طريق العودة إلى البيت جاء بقية الرفاق. ساروا معًا جميعًا، يضحكون ويتكلمون وكأن شيئًا لم يكن.

fb/mashro3pdf

في أيام النقاهة التالية كان أحمد يصعد إلى السطح باستمرار. يتلمس ضوء الشمس الشحيح بناءً على تعليمات أمه، كي يطرد ما تبقى في عظامه من برد ورطوبة. جلس في نفس المكان الذي جلس فيه مع مروة من قبل. تسرب إليه الدفء. شعر كأن الشمس تغسله. أدرك أن مروة قد ضاعت إلى الأبد. لن تعود كي تقف معه على السطح مرة أخرى. رضي باختفائها مقابل ألا تخبر أحدًا بما حدث.

اختفى عش الحمام ووضع أبوه مكانه أصصًا مليئة بالطين الجاف، توطئة ليزرع فيها الريحان والنعناع ويضعها على سور الشرفة. ملأ أحمد إحداها بالماء. صب الكثير حتى تسرب الماء من مسام الإصيص وسال على الأرض. غمس يده في الطين فخرجت سوداء. غمسها مرة أخرى وأخرجها بقبضة طين طري. عجنه وصنع منه كرة متجانسة. كرر الأمر عدة مرات. يكور الطين ويضعه على الأرض.

انتظر أحمد سعد أمام باب البيت. لم يستطع أن يجلس في المحل الذي امتلأ بأوعية الطلاء والسلم الخشبي وبقية أغراض النقاش، وقد وضعت أم فوزي المقلاة خارج المحل، ووضعت قدرة الفول وماكينة عجن الفلافل في مدخل البيت، تحت السلم.

سألته أم فوزي عن صحته الآن. ولم تقل إنها من أشارت على

fb/mashro3pdf

أمه كي تسقيه اللبن المر. حذرته من تخفيف الملابس، وشددت عليه بضرورة تحصيل ما فاته خلال فترة غيابه عن المدرسة. كان يريد أن يحكي لها عن الحلم الذي رآه، لكنه تردد ولم يجد الوقت مناسبًا.

ناداه سعد فدخلا شقة الطابق الأرضي الضيقة، التي أخذ المحل أغلب مساحتها فصارت غرفة واحدة وحمامًا وصالة صغيرة. جلسا على الأريكة يتصفحان كتاب الرياضيات ويتحدثان. وكالعادة تحدث سعد عن مباريات الأهلي وعن لاعبيه الذين يقص صورهم من الجرائد، وعن عشقه الخاص لياسر ريان وعن صفقات اللاعبين الجدد.

كانت الريح تعبث بكل شيء في الخارج. أغلقتْ شراعة الباب الزجاجية بعنف. كان أحمد قد صار أكثر حرصًا وخوفًا على صحته. خشي الانتكاس فأغلق الشراعة وجلس مع سعد يكملان حديثهما، على أمل أن يستطيع تحصيل ما فاته، وكي يشرح له سعد شيئًا من دروس الرياضيات التي يكرهها ربما ساعده في فهمها. وفي المقابل فإن أحمد يساعده في شرح ما يستغلق عليه في بقية المواد.

دخل سعد الحمام وظل أحمد جالسًا على الأريكة جوار الباب، يقلب صفحات الكتاب دون رغبة مصغيًا إلى صوت الريح القوية.

fb/mashro3pdf

سمع حفيف أقدام في الخارج، توقع أن تكون أم فوزي، فصمت تمامًا حتى كاد يكف عن التنفس. وضع الكتاب جواره. سمعها تضع وعاءً ثقيلًا على الأرض وتسمي بالله. سمع حبات الفول تتدحرج في ماكينة العجين. وضعت الكُراث والبصل وهي تتمتم. سمع أحمد صوتها واضحًا وهي تقول:

"أووأونه إيفول إم إفنووتي إنتيه إتفيه أووأونه إيفول إم إبتشويس إنتيه ني تشويس جيه أو خريسطوس أوو أغاثوس في إتتي إنصاركس نيفين إتؤنخ الليلويا: جيه بي فناي شوب شا إينيه".

سمع الكلمات واضحة دون لبس. سرت في جسده رعدةٌ لم يعرف سببها. بصوت خفيض كرر الكلمات التي لم يفهمها، فغمره شعور غريب. تعالى هدير الماكينة. رجت هزتها الأرض. خرج سعد من الحمام وعلى وجهه تعابير الاستياء من الهدير العالي. فتح باب الشقة فلم يجد أحدًا، فأشار إليه كي يخرج.

صعدا إلى الدور الثاني فخفت الهدير قليلا، قابلتهما سحر وسلمتْ على أحمد، دخلا غرفة سعد. جلس أحمد على الأريكة تحت الشباك، يتابع حركة سحر في الصالة عبر الباب المفتوح، وهو يكاد يذوب من فرط رقتها وجمالها. نحيلة، بيضاء، رقيقة، دقيقة الملامح، في عينيها كحلٌ ربانيٌ. تقوم على خدمة أمها وأخيها وابنه، وقد صارت أمًا لسعد بعد وفاة أمه.

fb/mashro3pdf

جاء سعد وأغلق الباب. تمدد على السرير وفتح كتاب الرياضيات بتراخ. وبعد حين جاءت سحر بالشاي والشطائر. اطمأنت على صحة أحمد وقالت له ضاحكة ألا يستمع لكلام سعد وأن يجبره على المذاكرة ثم خرجت وأغلقت الباب.

ولحين شرد أحمد في وجهها الأبيض الرقيق وفي كلماتها القليلة، وسعد يشرح مسائل الجبر المملة، وهو يسمعه دون وعي.

fb/mashro3pdf

نزل هاني من سيارة أبيه على ناصية الشارع. وفي طريقه إلى البيت، رأى ابنيّ صبري السماك وعمرو حفيد أم عوني. ناداه سامح ابن صبري الأكبر، ودعاه كي يلعب معهم. توجس هاني خيفة، لكنه قال لنفسه إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا، فهو أمام بيته.

اقترب رامي وقال إنّهم يريدونه صديقًا، وقال عمرو أن لا محبة إلا بعد عداء ويكفي أنهم جيران في شارع واحد. هم ثلاثة ويريدون رابعًا كي يكوّنوا فريقين. أخبرهم هاني أنه لابد أن يصعد إلى البيت وسوف يعود بعد قليل. فقالوا إنهم ها هنا منتظرون. ارتدى هاني حذاءه الرياضي، وذهب إليهم وهم يلعبون أمام بيت أم عوني، اختار أن يلعب مع رامي ابن صبري الأصغر فهو أكثرهم مهارة.

كانوا قد جعلوا من مدخل بيت أحمد الحطيبي مرمى مشتركا. ظل هاني متوجسًا، متوقعًا الغدر، يخطط للهرب عند أول بادرة. انتهت المبـــاراة الأولى بفوز هاني ورامي بأربعـــة أهداف لهدفين. لعبوا

fb/mashro3pdf

مباراة أخرى وبدلوا الفريقين، فلعب هاني مع عمرو. وبعد الهدف الثالث، دخل رامـــي يحضر الكرة من المدخل فتبعه أخوه غاضبًا. صرخ فيه يؤنبه على الخســـارة، فصـــرخ فيه رامي بدوره واتهمه بأنه الســـبب. تصاعد الموقف فدفع سامح أخاه الأصغر وتشاجرا. دخل عمرو وهاني للتفريق بينهما، فصرخ ســـامح في هاني ودفعه وقال إنّ لا شأن له. غضب هاني ودفعه في صدره وهمّ أن يضربه، فتجمع ثلاثتهم حوله ولم يدرك هاني الفخ إلا متأخرًا.

انهالوا عليه ضربًا. ضربه عمرو في ساقه بقوة فأسقطه على الأرض. ركلوه بعنف فسبهم وهو لا يستطيع لهم دفعًا. تلقى في أنفه ركلة قوية فنزف، جأر بالصراخ عاليًا، ولما رأوا الدم فروا هاربين.

فتحت إحـــدى بنات أحمـــد الحطيبي باب الشـــقة على صوت الصراخ. فرأت هاني مرميًا على الأرض، ماســـكًا بطنه يئن والدم ينزف مع أنفه. صرخت فخرج أبوها العجوز وقد انحسرت الملابس عن بطنه البارز، وآثار نوم القيلولة بادية عليه.

وقف في مدخل البيت يسب ويلعن غاضبًا، لا يعرف من فعل هذا بالفتى. أراد أن يرميه خارجًا بسرعة. مر اثنان من العمال الساكنين في الجوار، ولما سمعوا صراخ الرجل الغاضب ورأوا بنته ذات الشعر الأصفر المصبوغ، وقفوا يستفهمون عما حدث.

fb/mashro3pdf

تعاون العاملان على إنهاض الفتى، وساعداه حتى وصلا به إلى البيت، ثم تركاه بعدما أخبرا أمه بما حدث. أشاعت أم عوني في الشارع كله أن الفتى دخل كي يتجسس على بنات الحاج أحمد الحطيبي، ولما رآه عمرو حفيدها وأبناء صبري السماك، ضربوه، لأنه ينتهك حرمة البيوت.

اشتعل الشارع بالكلام وبالاتهامات المتبادلة. وخاض الجميع في سيرة أحمد الحطيبي وبناته اللواتي يزججن حواجبهن في الشرفة دون حياء، ويقفن في الشارع بملابس لا تستر أجسادهن.

انطلقت الكراهية المكبوتة بين سكان الشارع، وامتلأ المقهى بالأحاديث. خمنوا أن صبري عرفة هو المحرض والمخطط لهذا الفخ. قال زكريا الصايح إن صمت رضا يدل على أنه يتحين اللحظة المناسبة كي يقتص لولده.

أصبح صبري عرفة عدو الجميع. وبدأت أيام طويلة من التربص بين الطرفين. وحذر الأهل أبناءهم من تعدي بيت الدمرداش، والذهاب ناحية بيت السماك أو ناحية بيت أم عوني العجوز سليطة اللسان.

بعد عدة أسابيع شفي هاني وطابت جراحه. لم يصدق الجيران ما قالته أم عوني. ولأول مرة يتعاطفون مع الفتى المشاغب الذي يثير المشكلات على الدوام. لم يتحدث أبوه في الأمر مع أحد على

fb/mashro3pdf

الإطلاق، حتى نسي الجميع كل شيء بعد أسابيع.

أغلق فاروق الاستورجي محله مبكرًا يوم الخميس. فذهب هاني وبقية الرفاق للعب عند بيت أحمد يوسف. كانت أم عوني جالسة في الشباك كعادتها تدخن، نادت على عمرو بصوتها الأجش وأمرته أن يكسر مصباح عامود الإنارة، فالإضاءة تتعبها وتكشف الغرفة للعابرين.

غزا التوتر نفوسهم جميعًا عندما سمعوها تنادي على حفيدها. كانوا يلعبون وعيونهم مصوبة ناحيتها. رأوا حفيدها عمرو خارجًا بالفانلة الداخلية. أسود ضخم، وعلى شفتيه ابتسامة شرسة. جمع بعض قطع القرميد الملقاة في الشارع، وصوب ناحية المصباح، وبعد عدة محاولات نجح في كسره.

سمع الدمرداش ما قالته أم عوني ورأى ما حدث من الشرفة، فصرخ في عمرو كي يتوقف فلم يعره انتباهًا ودخل إلى البيت. تراشق الدمرداش بالكلام والصراخ مع أم عوني. وحينها فقد أحمد ورفاقه حماسهم للعب ووقفوا يشاهدون ما يحدث.

بعد دقائق نزل الدمرداش بجلبابه الأبيض ووقف يكمل حديثه الصارخ مع أم عوني. ملأ صراخهما الشارع، فخرج الناس إلى الشرفات والشبابيك. تدخل صبري السماك ودفع الدمرداش بقوة في صدره قائلًا إن ما حدث ليس من شأنه وليبلغ الشرطة لو أراد.

fb/mashro3pdf

اهتاج الدمرداش أكثر وعلى صراخه. ثم خرج أبناء السماك وخرج عمرو. سبوا الرجل العجوز فسبهم، ثم وجد الدمرداش نفسه وحيدًا، فانسحب وعاد أدراجه وهو يهدد بإبلاغ الشرطة. سبه صبري وقال له أن يفعل ما يشاء. وجلس على عتبة البيت وقال بصوت عالٍ إنه جالس هاهنا حتى تأتي الشرطة.

بدأ أبناؤه مع عمرو حليفهم يلعبون الكرة في محاولة لاستفزاز الجميع. وبعد حين حدث ما كان متوقعًا. فمن ركلة قوية طارت الكرة ناحية هاني الجالس على عتبة بيت القصّاص. تردد أولاد صبري في الذهاب لاستردادها. ولما رأى هاني وبقية رفاقه تردّدهم، أخذوا الكرة، وتلقائيًا رشقوهم بالحجارة.

وفي لحظات اختبأ كل منهم خلف ساتر يحميه. طاشت قطعة قرميد قذفها حسن فأصابت صبري، فقام غاضبا يجري ناحيتهم يسب ويلعن، وأم عوني تشارك بالسباب والصراخ وهي جالسة في الشباك.

تراجع هاني وأصدقاؤه وابتعدوا قليلًا عن مهاجميهم. أصاب أشرف صبري إصابة مباشرة من مسافة قريبة، فازداد صبري غضبًا. تراجعوا ركضا إلى ناصية الشارع فركض صبري وراءهم ومن خلفه ابناه وعمرو حليفهم الشرس يحاولون إصابتهم وهم يجرون.

fb/mashro3pdf

فـــي غمرة غضبه نســـي صبري أنه قد تقـــدم حتى ما بعد بيت رضا صقر. وخرج الناس يشـــاهدون ما يفعله هذا المجنون سليط اللســـان. انتهز رضا الفرصة فنزل من البيت سريعًا حاملًا هراوته الســـوداء الثقيلة. ضرب صبري بها على رأسه وقام بينهما شجار. شـــج رضا رأس غريمه بثلاث ضربات متتالية. وقد حانت اللحظة التي انتظرها طويلًا.

سقط صبري على الأرض من قوة الضربات والمفاجأة وبأس رضا. حاول سامح أن يشتبك مدافعًا عن أبيه، ركله رضا في بطنه، فسقط على الأرض يئن. عاد هاني ورفاقه يتجمعون، وقذفوا رامي وعمرو بالحجارة بكثافة ونجحوا في إبعادهما.

تعالت صرخات صبري. والنساء الواقفات في الشرفات يولولن. وقف زكريا الصايح مع صبيانه يشاهدون ما يحدث. لم يتدخل وترك رضا حتى ينتهي.

صرخ الأستاذ عبد المنعم من الشرفة فيهما بصوته الأجش كي يكفّا دون أن يجرؤ على النزول. وبعد حين انهارت مقاومة صبري تمامًا فظل نائمًا على الأرض، لا يملك سوى السباب وقد أغرق الدم وجهه. وفي اللحظة المناسبة تدخل زكريا وصبيانه وفرقوا بين الرجلين.

شفى الجميع غليلهم بعدما رأوا صبري السماك مُهانًا. غمرتهم

fb/mashro3pdf

فرحة ممزوجة بالخوف. إذ خافوا أن يمسهم سوء حين ينتقم من رضا بعد أن أصبح أضحوكة أمام الجميع.

هاني ورفاقه كانوا أكثر الفرحين بهذا الانتصار الكبير واعتبروا أنفسهم جزءًا منه. شعر هاني بالفخر حين رأى أباه ينتقم له.

fb/mashro3pdf

بسهولة أسقط حسن أبو العز القراميد السبع بالكرة، فخطفها أشرف وركض خلفه يريد إصابته كي يخرج من اللعبة. لم تُفلح مناورات حسن فأصابه أشرف في النهاية. غضب حسن كالعادة. صرخ وسبّ غريمه الدائم وهو يضرب الأرض بقدميه.

تدخل هاني لصالح حسن زميله في الفريق. وقال لأشرف إنه ليس من العدل أن يكونا اثنين فقط في فريق، وهو مع سعد وأحمد في فريق. فلا يجوز أن يكون فريق المهاجمين ثلاثة. رد أشرف بأنه قد وافق على هذا من البداية، فلماذا يعترض الآن؟ ودخلا في نقاش صارخ.

بعدما احتدم النقاش حينًا. فقدوا جميعًا حماسهم للعب. وقف حسن وأحمد وسعد حولهما يتابعون. فقال هاني لما وجد موقفه ضعيفًا وأدرك أنه خاسر لا محالة: أنا زهقت من لعب العيال ده!.

جلس أحمد وسعد على الرصيف مستندين بظهريهما إلى الحائط،

fb/mashro3pdf

ثم جلس بقية الرفاق. وقد ألقت شمس العصر نورها البرتقالي على البيوت. انغمس خمستهم في صمت طويل، قطعه مرور فاروق الاستورجي بدراجته النارية ماركة "فيسبا". فأحدث محركها الخرب ضجيجًا عاليًا، وبعث دخانًا رماديًا كثيفًا، فسدوا آذانهم وحبسوا أنفاسهم ريثما يمرّ.

- أهو جه بقى وهيقرفنا!

قالها أشرف الصايح حانقًا وقد تقلصت عضلات وجهه من أثر الدخان وضوضاء المحرك.

- إحنا مش هنلعب تاني أصلا. قالها أحمد

- ليه؟

- زهقنا بقى

كانوا قد تركوا اللعب بكرة القدم مللًا. جربوا اللعب بالبليّ وتركوه بعد فترة. جربوا ألعابًا كثيرة. لكنهم في النهاية كانوا يتركونها مللًا. يحاصرهم فاروق الاستورجي وأنور العطار الجالس دائمًا أمام دكانه لا يبيع ولا يشتري. يحاصرهم متولي الحداد الرابض على ناصية الشارع. ويحاصرهم الأهل، يراقبون منهم كل حركة وكل بادرة.

- هنفضل قاعدين كده؟

fb/mashro3pdf

عدل هاني وضع ظهره على الجدار وثنى قدميه المفرودتين. قال إنه لا يشعر بهذا الملل إلا معهم. فهو يذهب إلى المقابر ومدرسة الزراعة مع أصدقاء الصفّ الشجعان الذين لا يهابون شيئًا. وأخذ يحكي عن صولاته وسط المقابر التي طالما دعاهم لدخولها. ثم روى لهم كيف دخل المقابر ليلًا، وأثار رعب الخفير الذي كان يتلو القرآن بصوت عالٍ وسط الظلام. ظنّه من العفاريت وكاد يطلق النار عليه من بندقيته الخرطوش.

ضحكوا عاليًا عندما قلده هاني وهو يجري خلف أشباح لا يراها، واضعًا طرف الجلباب بين أسنانه. كانوا يعرفون أنه يكذب، أو على أفضل تقدير، أنه سمع هذه الحكايات من شخص ما ونسبها إلى نفسه. ورغم ذلك ظلت حكاياته تثير خيالهم وتمنوا كثيرًا أن يعيشوها.

لم يكن سعد ليفوّت مثل هذه الفرصة أبدًا فاتهمه بالكذب. ثار هاني ودعاه للذهاب إلى المقابر حالًا. قال إنه يتهمه بالكذب لأنه لا يستطيع أن يفعل ما يفعله هو.

قطع حديثهما الصارخ مرور "نورا" ابنة أم عماد على مقربة. ظلت تصوب نظراتها إليهم طويلًا. أخافتهم فحبسوا أنفاسهم. تكبرهم بأعوام قليلة. كانت تلعب معهم وهم بعد صغار. تتشاجر وتصرخ مثلهم. لكنها الآن لم تعد تكلمهم قط. ولما دخلت البيت وأغلقت البوابة تنفسوا الصعداء.

fb/mashro3pdf

- هي البت دي بقت عاملة كده ليه؟

- مالها؟

- بقت شكل البومة!

ارتموا على ظهورهم من فرط الضحك. كان تشبيه هاني قريبًا للغاية، وكأن كلامه قد اقتص لهم جميعًا من نظراتها التي أخافتهم.

- أمي بتقول ان فرحها قريب

- منفعتش في المدارس قالوا يجوزوها أحسن

- البت دي كانت بتضرب كل يوم في المدرسة. أصلها كانت زميلة أختي. بت غبية أوي

- الواد ياسر الاهبل بتاع المؤسسة قاللي انها بتشرب سجاير

- وهو شافها فين؟

- معرفش بس قاللي

- تلاقيه شافها وهي بتجيب سجاير لميدو أخوها من عند الطوخي. قالك بتشرب

- انت عارف ميدو أخوها لو سمعك هيعمل فيك ايه؟ ولا امها؟!

fb/mashro3pdf

- يا عم انا مالي. هو اللي بيقول

- انتوا عارفين ان ميدو بيشرب حشيش؟

- وعرفت منين؟

- شفته كان بيشرب في المدخل

- وعرفت منين انه حشيش؟

- عارف يا عم. ما أبوه بيشرب في القهوة كل يوم

- ما انت ابوك بيشرب مع ابويا كل يوم

قالها أشرف الصايح غاضبًا موجهًا كلامه لهاني. فقد اعتبر كلامه إهانة وجب ردها في الحال، رغم أن الجميع يعرفون بالأمر.

- عايزين نجرب البتاع ده

قالها حســـن أبو العـــز بصوت خفيض. قالها ببراءة وســـذاجة كالعادة

- مش لما تشرب سجاير الأول

- وانت يعني اللي شربت؟

- طب واللـه شربت. وباشرب في الفصل كل يوم

انتبه هاني إلى ارتفاع نبرة صوته في الجملة الأخيرة. فخفض

fb/mashro3pdf

صوته وحكى عند تدخينه في المدرسة جوار الحمام تارة، وجوار السور تارة أخرى. قال إنه يسرق السجائر الكليوباترا من علبة أبيه، وإنه على استعداد أن يشربها أمامهم. وتجرأ أكثر وقال إنه يستطيع أن يشرب في الشارع غير مبالٍ بأحد.

سمعوا صوت أم عوني تنادي على إحدى جاراتها. رأوا شباكها في الدور الأرضي مفتوحًا وذراعها الأسمر الضخم ولم يروا وجهها. كف هاني عن الكلام ونظروا جميعا ناحيتها. ظلوا جالسين يستمعون إلى الحوار الدائر بينها وبين جارتها، ثم رأوا دخان السيجارة التي تشربها خارجًا من الشباك.

قفز سعد بغتة وقام يواجه الأربعة الجالسين باسترخاء على الرصيف. قال إنه صنع قراطيس مليئة بالرمل والإسمنت لاستخدامها ضد صبري السماك وابنيه، وقد انتهت المعارك وظلت القراطيس لديه.

كان يتكلم بحماس شديد. يكاد يتقافز وقد التمعت عيناه. طلب منه هاني إحضارها. فذهب سعد إلى البيت جريًا، وعاد بعد قليل ومعه قرطاسان. فتح أحمد قرطاسًا يتفحصه وقد أعجبته الفكرة. قال سعد إن عليهم أن يثقبوا القرطاسين من الجوانب لإحداث التأثير المطلوب. ورغم أن أحدًا منهم لم يصرح باستخدام القراطيس ضد أم عوني، إلا أنهم اتفقوا ضمنيًا على ذلك. جلسوا يتطلعون إلى

fb/mashro3pdf

الشباك، ينتظرونها حتى تنام، غير قادرين على الانتظار طويلًا من فرط الحماس.

وبعد فترة طويلة، صمتت أم عوني. يعرفون أنها تنام تحت الشباك مباشرة ساعة القيلولة. قاموا يتناقلون الكرة من قدم إلى أخرى، إلى أن ركلها سعد بقوة ناحية بيتها. تريث قليلًا وهو عائد بالكرة، فرأى العجوز نائمة على السرير، ونقل ما رآه لرفاقه. فقال هاني إنه سوف يذهب مع سعد وعلى البقية أن يقفوا عند الحارة الثانية، كي يحموا ظهريهما من أي هجمات غير متوقعة.

تحرك الخمسة وللمرة الثانية ركل سعد الكرة بعيدًا متعمدًا، وتظاهر بإحضارها مع هاني. ووقف أحمد وأشرف وحسن عند الحارة الثانية. نظر سعد إلى الشرفات والشبابيك كي يتأكد من خلوها، ثم ألقيا القرطاسين في وجه أم عوني التي نامت فاتحة فمها.

ركضوا جميعًا من الحارة إلى شارع الأعصر. سمعوا صراخ المرأة العجوز مختلطًا بسعالها الفج. كانوا يترنحون وهم يركضون وتقلصت عضلات بطونهم من أثر الضحك. ابتعدوا عن الشارع حتى يهدأ كل شيء. لعبوا بالكرة على الرصيف أمام مؤسسة رعاية البنين، وهم يضحكون وعيونهم معلقة بمدخل الشارع. ثم عادوا قبل أن يحكم الليل تمام قبضته على الشارع.

fb/mashro3pdf

وفي اليوم التالي عرف كل سكان الشارع ما حدث. كانوا شبه متأكدين من أن هاني ورفاقه هم من فعلوها. لكنهم فرحوا شامتين فيما حدث للمرأة الشمطاء سليطة اللسان.

fb/mashro3pdf

بعد هذه الحادثة بأيام نسي الناس ما حدث. وفرح هاني ورفاقه لأن الحادثة مرت وكأن شيئًا لم يكن. لم يعاقبهم ذووهم، لم يعاتبهم الجيران أو يسألوا. فازدادوا جرأة حين تم لهم انتقامهم كاملًا. وعاد هاني يلح على رفاقه كي يدخلوا المقابر سويًا. وهذه المرة، لمس منهم موافقة على استحياء حين صمتوا ولم يواجهوه بالرفض أو بتكذيب حكاياته.

تزحزح الخوف من قلوبهم قليلًا. وعمل هاني على تشجيعهم أكثر. يحمسهم تارة، ويعيّرهم بجبنهم تارة. قال إنهم سوف يذهبون في ضوء الشمس ولن يلاحظ أحد غيابهم. ظلوا مترددين، يسألون ويصمتون. وهو يتكلم بصوت خفيض، شارحا التفاصيل والخطة كاملة. وفي النهاية وافقوا على الذهاب سويا.

خرجوا من الشارع قبل المغرب بقليل. ولما مروا من أمام بيت أم عوني في طريقهم للمقابر لاحظوا أن شباكها مغلق على غير

fb/mashro3pdf

العادة فضحكوا. وصلوا إلى شارع عبد السلام عارف الرئيسي، وفاجأتهم حركة السيارات الكثيرة وضوضاؤها.

عبروا الطريق ودخلوا الشارع الطويل غير الممهد المؤدي إلى المقابر. وصلوا إلى نهايته وقد صارت السماء بنفسجية. داهمتهم وحشةٌ لما رأوا سور المقابر العالي من بعيد. التفوا حوله بناء على تعليمات هاني كي يبتعدوا عن الخفير، وكي ينفذوا من فجوة في السور يعرف هاني مكانها.

عبر هاني أولًا، وهو يحثهم على الإسراع بالدخول قبل أن يراهم أحد. حل الظلام فارتجفت قلوبهم. لم يعلن أحد عن رغبته في العودة، خوفًا من أن يكون الجبان الوحيد. انجرحت مرافقهم وأرجلهم من الفجوة الضيقة. ولما دخلوا نفضوا ثيابهم وساروا خلف هاني الذي أخذ يصدر تعليماته للجميع بصوت خفيض.

مشوا بخطوات مرتجفة، وعن يمينهم أسوار الأفنية العالية والشواهد. أشار هاني إلى شجرة قريبة فوقفوا تحتها يتلفتون. أعلن حسن أبو العز عن رغبته في التبول. امتلأت مثانته سريعًا بفعل الخوف. وقف جوار السور وأعطاهم ظهره. أطلقوا ضحكات عصبية مكتومة لما سمعوا صوت بوله يسيل على الأرض الترابية.

أخرج هاني من جيبه سجائر وعلبة ثقاب، أعطى كل واحد منهم سيجارة.

fb/mashro3pdf

- ايه ده؟

- هيكون ايه؟ سجاير.. خد

أشعل هاني عود الثقاب المشتعل ولف كفه الأيسر حوله. أشعل السيجارة ونفث الدخان بحنكة ومهارة كي يبهرهم. تضخم وجوده بينهم. يصدر الأوامر إليهم، وقد وقعوا جميعًا تحت سطوته. أعطى علبة الثقاب لسعد جاره الأقرب وقال:

- خد ولع.. وشدّ منها وانت بتولع

- ازاي؟

- هات انت غبي

خطف منه علبة الثقاب ولفافة التبغ. وأعاد ما فعله مرة أخرى كي يريهم كيف يتم إشعال السيجارة. يشرح ويتكلم من بين أسنانه التي ضغطت على عقب اللفافة، ثم أعادها إلى سعد الذي وضعها في فمه متقززًا.

وبعدما نجحوا جميعًا في إشعال السجائر أخيرًا، جلسوا تحت الشجرة العالية الكبيرة. علمهم هاني كيف يبتلعون الدخان. سرت بينهم موجة من السعال، فنهرهم وأسكتهم لكي لا يسمعهم الخفير.

استند أحمد بظهره إلى جذع الشجرة. أدخل عدة أنفاس إلى رئته فسعل بقوة واحمر وجهه. ولما هدأت أنفاسه شعر بالدوار والغثيان

fb/mashro3pdf

وتفصد العرق البارد من جبينه. وشعر بالموجودات تغيم قليلًا.

هبت الريح قوية فجأة وحركت أوراق الشجرة. تخيل أحمد أن الروح قد دبت في الشجرة وأنها تنتظر لحظة غفلة منهم كي تهاجمهم جميعًا. تخيل أن الشواهد العالية البعيدة الغارقة في الظلام عمالقة قد تتحرك وتهاجمهم لأنهم تجرأوا ودخلوا ليلًا.

طرد أحمد الخواطر المرعبة كي يظل محتفظًا برباطة جأشه. فمنذ البداية والخوف يجوس في قلبه، لكنه مصر على التقدم أكثر كي يتم التجربة لآخرها. لم يكن خائفًا من الأموات. فهو يعرف أنهم لن يفعلوا أي شيء. كان كل خوفه من الخفير وعصاه الغليظة، ومن أبيه وأمه لو عرفا بذهابه إلى المقابر.

لكنه بعد حين أحس براحة وتحرر وغبطة. فالآن هو بعيد عن أوامر أبيه وتعليمات أمه التي لا تنتهي. بعيد عن الأساتذة اللحوحين الغلاظ وعن صراخ المُدرسات. بعيد عن عصا الشيخ عبد الرحيم التي يناوشه بها طيلة الوقت، فينسى الآيات ولا يحفظ منها إلا قليلًا.

كل هؤلاء ليسوا هنا الآن. هم بعيدون جدًا ولا يعرفون أين هو ولا يعرفون ماذا يفعل. وعندما هبت الريح مرة أخرى، كانت تحمل روائح لا يعرفها لكنه أحبها، وقد أنعشته قليلًا لما ارتطمت بوجهه المغطى بالعرق البارد.

fb/mashro3pdf

رمى هاني عقب السيجارة وتلفت حوله. نظر إلى السماء ثم نهض واقفا. لقد انتهت المغامرة عند هذا الحد. طالت غيبتهم عن الشارع وحل الظلام تمامًا. قاموا يترنحون من أثر التدخين لأول مرة. ساروا جوار السور العالي كي يتلمسوا الفجوة التي دخلوا منها، بعد أن غير الظلام معالم المكان، وحلّ بحضوره الصارم الثقيل. جثم على صدورهم وعلى كل شيء. فظنوا أن صدورهم ضاقت من أثر الدخان.

عندما وقفوا أمام الفجوة. سمعوا أصوات أناس يتحدثون من الناحية الأخرى من السور. توقفوا جميعًا عن السير وقد شلهم الرعب. لم يميزوا كلامهم، لكنهم أدركوا أن هؤلاء من الأشقياء أو اللصوص الذين يأتون إلى هذه المنطقة المهجورة ليشربوا الحشيش وزجاجات التوسيفان.

وقفوا ينظرون إلى بعضهم البعض في الظلام. لا يلوون على شيء ولا يعرفون كيف يتصرفون. لا يمكنهم الانتظار ولا الخروج. فربما دخل الأشقياء من الفجوة، وحينها لن يستطيعوا منهم فكاكًا. ظلوا على حالهم عدة دقائق لعلهم يخرجون، ثم أعلن حسن أبو العز بطريقته العصبية الطفولية عن رغبته في التبول مرة أخرى.

صمت الواقفون في الناحية الأخرى حين سمعوا صوته. ثم قال أحدهم مخاطبًا الآخرين إنه سمع صوت أحد بالداخل. مد رأسه من

fb/mashro3pdf

الفجوة فرآهم، وكان هذا كفيلًا بإيصال قلوبهم إلى الحناجر.

- الحق يالا ده في عيال جوه

أطلقوا أرجلهم للريح مرتعبين لا يعرفون أين يتجهون. دخل الأشقياء جميعًا من الفجوة. ثم نادى أحدهم بلسان معوج.

- خد يالا انت وهو

ركض الأولاد كلٌ في اتجاه. وقد بعثرتهم طرقات المقابر الضيقة المظلمة، وأحكم الرعب قبضته العاصرة الغاشمة على أرواحهم جميعًا. بكى حسن وهو يجري من فرط الخوف، وقد نسي رغبته في التبول. وفي خضم ركضهم الخائف سمعوا أحد المُطاردين ينادي على الخفير ويخبره بأن هناك لصوصًا في المقابر. وأخذ الأشقياء الأربعة يطاردونهم كنوع من التسلية. وقد أثارهم المخدر. اتفقوا على محاصرتهم مع الخفير. فقد كانوا يعرفون طرقات المقابر جيدًا.

ركض أحمد بقوة وهو يسمع دقات قلبه عالية. أراد أن يهرب من المُطاردين ومن قبضة الظلام. أحس أن هذا الموقف لن ينتهي أبدًا، متمنيًا أن يكون كابوسًا من الكوابيس التي تطارده في ليالي الشتاء.

وبعد حين من الركض وقف يلتقط أنفاسه وهو موشك على

fb/mashro3pdf

البكاء. تلمس خطوات أصدقائه من حوله، فلم يسمع شيئًا ولا حتى خطوات مُطارديه. فأدرك أنه ابتعد عنهم مسافة كافية. وحين سمع صوت نداءاتهم للخفير من بعيد ركض في الاتجاه المعاكس.

أخذ يركض ويركض. تعثر وقام عدة مرات. أدمى ركبتيه ومرفقه الأيمن. تعثر في إصيص مليء بالصبار فجرح قدمه. شعر بالدم اللزج الدافئ يغمر ساقه. دخل تراب المقابر في أنفه وفمه. بكى من الألم والخوف، ثم منع نفسه بصعوبة لكي لا يسمعه أحد.

ومن بين دموعه، رأى أضواء تأتي من بعيد. زاد من سرعته. خاف أن يلحق به أحد الآن. ولما اقترب أكثر، رأى النور آتيًا من الشارع، حيث تهدم جزء من السور العالي المحيط بالمقابر. سمع صوت باعة ينادون على فاكهة وخضروات. وقف على بعد أمتار من الجزء المتهدم، وقد أحس بالطمأنينة تجتاح قلبه. لم يرد أن يخرج مباشرة وهو يجري كي لا يلفت الانتباه. ولما اطمأن إلى حركة الشارع المزدحم وهدأ لهاثه، خرج متسللًا من جوار السور، بعدما تأكد أن أحدًا لن يراه.

وجد أحمد نفسه في شارع كبير مزدحم. فيه موقف للسيارات وباعة كثيرون. لم يعرف أين هو. ابتعد عن السور ودخل وسط الزحام. رأى مبرد مياه وعليه لافتة "صدقة جارية". غسل يديه ووجهه من أثر التراب والدموع وشرب. وقف يتابع حركة الميدان

fb/mashro3pdf

شديد الازدحام. رأى لافتة كبيرة. صدمته المفاجأة لما قرأ المكتوب عليها "موقف مدينة الزهراء". لقد قاده ركضه وطرقات المقابر إلى مكان بعيد جدًا عن بيته. ولم يصدق لأول وهلة أنه ركض كل هذه المسافة.

رأى رجلًا مسنًا يسير متثاقلًا فسأله كيف يذهب إلى شارع مستشفى الصدر. نظر إليه الرجل نظرة مرتابة حائرة وقال إن عليه أن يركب من الموقف أي سيارة ذاهبة إلى شارع الجلاء. قال أحمد إنه يريد معرفة الطريق سيرًا. سأله الرجل كيف جاء إلى هنا؟ فقال إنه جاء ليلعب الكرة مع أصدقائه، ولما تركهم ليشرب تاه وسط الزحام. شرح له الرجل المسن طريق العودة دون أن يزول ارتيابه. وقال إن المسافة كبيرة وقد تأخذ ما يزيد عن نصف ساعة.

شكره أحمد ومضى في الطريق حسب ما شرح له. وبعد حين من السير الأقرب للهرولة هدأت أنفاسه وانتظمت ضربات قلبه. وشعر بالآلام تغزوه من أثر السقطات المتتالية. وكلما هب الهواء البارد مزق مرفقيه الداميين، وصدم جسده الساخن المبتل بالعرق.

وعندما رأى أضواء جامع العيسوي الخضراء اطمأن وعرف أنه يسير في الاتجاه الصحيح. سأل أحد المارة عن الساعة، فقال إنها التاسعة والنصف. ولما وصل إلى مدخل الشارع كان يجرجر

fb/mashro3pdf

قدميه، ويفكر في الأعذار التي سيقولها لأمه أو لأبيه عن تأخره وعن هيئته المزرية.

لم يذهب إلى البيت من الطريق المعتاد مباشرة، لكي لا يراه أحد ويسأله عن أصدقائه الغائبين. ولما تذكر أنهم ضاعوا وسط المقابر، وهو لا يعرف عنهم شيئًا اضطرب وخاف. دخل من شارع الأعصر ثم من الحارة. لم ير سيارة أبيه واقفة تحت البيت. فتح البوابة الحديدية وصعد على أطراف أصابعه، وقلبه يدق خوفًا من المساءلة والعقاب.

وجد باب الشقة مفتوحًا كالعادة. سمع صوت التلفاز ورأى أخته جالسة تلعب بأوانٍ بلاستيكية على الأرض. لم يجد أمه جالسة أمام التلفاز. سأل أخته عنها فقالت إنها نائمة. خلع حذاءه الرياضي جوار الباب ودخل الحمام جريًا. ألقى الملابس المتسخة في الغسالة. وقف تحت الماء الفاتر الذي ألهب جروحه، وأزال التراب وملح العرق والدم المتجلط. تفحص جسده، رأى الخدوش والكدمات، ورأى جرح ساقه اليمنى طوليًا عميقًا أشبه بمخالب قط.

خرج وارتدى ملابس نظيفة. تمدد على السرير، وقال لأخته أن تغلق باب الشقة والتلفاز وأن تأتي وتجلس معه. جاءت بألعابها البلاستيكية الصغيرة. جلست على السجادة المفروشة على الأرض. يحدثها وهو ممدد على السرير ويضحك. يشاركها اللعب كي ينسى.

fb/mashro3pdf

يخاف أن يعرف ذووهم أنهم ذهبوا إلى المقابر. لابد وأن أحدهم سيشي به. وفي غمرة شروده وتفكيره نام.

بعد عودة أحمد بساعة أو يزيد، عاد بقية الرفاق، وكان سعد أولهم. نجح في الهرب، حيث التف حول المُطاردين بالصدفة. ركض في الظلام فعاد إلى النقطة التي هرب منها. وجد نفسه أمام الفجوة التي دخلوا منها فخرج.

أما البقية فوقعوا في الأسر. فقدوا الاتجاه في الظلام من فرط الهلع. راح ثلاثتهم ناحية الخفير ووقعوا في الفخ الذي نصبه لهم مع المُطاردين. انهالوا عليهم بالركل والصفعات حتى سقطوا جميعًا على الأرض. مد المطاردون أيديهم إلى جيوبهم الخالية بحثًا عن أي شيء. سبوا أمهاتهم، وسألوهم عن أماكن سكنهم وأسمائهم، فأجابوا خائفين من بين دموعهم. ومن يتأخر في الإجابة تنزل الصفعة على صدغه أو قفاه.

ولما لم يجدوا معهم شيئًا. وبعدما نالوا ضربًا مبرحًا. سحبهم الخفير وطردهم خارج المقبرة وهددهم بالقتل لو عادوا هنا ثانية.

خرجوا من المقابر وقد احمرت وجوههم من أثر البكاء والصفعات. كل ما يريدونه أن يخرجوا من المنطقة بأسرها سريعًا. وبعدما ابتعدوا وتأكد هاني أنهم في أمان. حولت كبرياؤه الجريحة الخوف إلى غضب عارم ورغبة في الانتقام. كان يعرف أنهم يراقبون مسيرهم

fb/mashro3pdf

حتى نهاية الشارع. ورغم أنهم غائبون في الظلام، كان يعرف أن الخفير ومن معه متربصون.

وقف هاني بغتة، رجع خطوتين إلى الوراء، وأخذ يكيل السباب للخفير ومن معه. رفع عقيرته بأقذع السباب. هددهم قائلا إنه قد حفظ وجوههم وسوف ينال منهم ولو بعد حين، ثم ولى هاربًا. ولما وصلوا إلى أول الشارع، فكروا جميعًا - في نفس الوقت - في الأعذار التي سيقولها كل منهم لذويه. واتفقوا على ألا يقولوا إنهم كانوا معا.

لما رأى صالح أبو العز ابنه حسن لم يسأله عما حدث. صفعه على وجنته قبل أن يتكلم، ثم سأله صارخًا عما جرى له. قال حسن إنه تشاجر مع آخرين أرادوا أن يأخذوا منه الكرة. تدخلت أمه وتوسلت لأبيه. حالت بينه وبين الولد، ودفعته إلى الحمام كي يغير ملابسه ويستحم، ثم مالت على الأب الغاضب وذكرته أنه يجب ألا يضرب الولد ليلًا لكي لا تتلبسه العفاريت. كانت تخاف على ابنها، فهو ولد على أربع بنات، الولد الأصغر الذي تمناه أبوه من اللـه وجاء بعد وقت طويل.

وعندما عاد أشرف إلى البيت اعتمد نفس الإجابة. أمرت أمه أخاه الأصغر أن ينادي أباه الجالس في المقهى من الشرفة. دخل زكريا الصايح البيت، فأعادت زوجته ما قاله الولد. أمسك زكريا

fb/mashro3pdf

طرف جلبابه بيده وجلس على الكرسي وهو ينظر إلى ابنه بهيئته المزرية، وقد وقف منكمشًا خائفًا في وسط الصالة.

- ايه اللي عمل فيك كده يالا؟

- شوية عيال كانوا عايزين ياخدوا الكورة

- ولما هما شوية عيال. عملوا فيك كده ازاي؟

- اصلهم كانوا كتير. وعشان ا...

- عشان انت هفأ! بقى شوية عيال يعملوا فيك كده؟. ده لو حرامي اتمسك في السوق مش هيتعمل فيه كده. لو شفتهم تعرفهم؟

- ايوه

- لو شفت واحد منهم معدي م الحتة تيجي تقولي جري

- حاضر

- يالا اخفى غور. خش استحمى

أغلق أشرف باب الحمام فسمع أباه يتحدث بصوت عالٍ موجهًا الكلام إليه

- وبتلف من الحارة عشان مشوفكش ع القهوة؟ مفتح أوي بروح أمك!

fb/mashro3pdf

وبعد قليل سمع أشرف صوت باب الشقة يُغلق فعرف أن أباه قد عاد إلى المقهى.

قلّ خوف هاني كثيرًا لمّا لم يجد سيارة أبيه التاكسي واقفة تحت البيت. هم أن يطرق الباب، فسمع صراخ أمه من الداخل. أحس بيأس شديد الوطأة، وأيقن أن لابد من عقاب شديد. طرق الباب ففتحت له أخته الصغرى، اتسعت عيناها لما رأته. دخل إلى الصالة وأغلق الباب، وتوارت أخته بعيدًا.

رأى أمه عند باب الحمام. في يدها سير الغسالة الأسود الذي انقطع للمرة العاشرة، وفشلت في إصلاحه. كانت غاضبة من انقطاع السير، ومن اضطرارها إلى أن تغسل الملابس على يديها اللتين ألهبهما الكلور والمسحوق والماء المغلي.

سألته صارخة عن ما حل به فلم يرد. استفزها صمته أكثر. وقفت أمامه، أمسكت بتلابيبه وهو واقف كالصنم لا يتحرك ولا يتكلم. ولما لم تجد منه أي رد انهالت عليه بالسير الجلدي الأسود حتى ألهبت لحمه. لم يحاول أن يدافع عن نفسه، ترك نفسه لها تحت ضربات السير الخشن الجامد.

دفعته إلى الحمام بقوة. صرخت فيه كي يخلع ثيابه، ثم تركته وقالت إنها سوف تعود. خجل أن تراه عاريًا. خلع ملابسه ووقف

fb/mashro3pdf

بالملابس الداخلية. عادت فوجدته لم ينفذ ما قالت. انهالت ضربًا على جلده العاري. يصرخ فتسبه.

يتردد صراخها العالي رفيعًا بين جنبات الحمام بفعل القيشاني. فتحت عليه الماء البارد. اصطكت أسنانه وارتجف. رأت الكدمات وأثار الصفعات والدم المتجلط على مفاصله. أجلسته على كرسي الحمام وخمشت ظهره بالليف الخشن. وبعدما انتهت أمرته أن يكمل خلع ملابسه ويغسل شعره بالصابون فلم يتحرك. استشاطت غضبًا، فقذفته بالقصعة البلاستيكية، وضربته بها حتى تكسرت وجرّحت حوافها لحم كتفه وقفاه وذراعه. أوقفته عنوة تحت الماء مرة أخرى وتركته وخرجت.

اصطكت أسنانه وانتفض. والماء البارد يسيل على لحمه الممزق وعلى الكدمات الساخنة. يزيل الصابون والتراب. فتح باب الحمام بحرص لكي لا تراه أمه أو أخواته البنات عاريًا. أدار مقبض الباب فسقطت الملابس الداخلية النظيفة على الأرض، وقد تركتها إحدى أخواته على المقبض من الخارج. ارتداها وارتدى بيجامة نظيفة ودخل غرفته. تمدد على السرير. أحس بحرارة تخرج من جسده كله ومن جراحه الملتهبة.

فُتح باب الشقة فعرف أن أباه قد عاد. ظل ممددًا على السرير منتظرًا عقاب أبيه، وسرعان ما صرخت أمه وحكت ما حدث.

fb/mashro3pdf

سمع أباه يسأل عنه. فقالت أمه إنه دخل لينام. ودعت عليه أن ينام فلا يقوم أبدًا.

كان رضا عائدًا من إحدى نزواته الليلية، منهكًا من الجماع الطويل. وقد جعلته البيرة والحشيش والجماع اللذيذ في حالة ممتازة من النشوة أضاعتها زوجته بصراخها. دخل رضا غرفته متجاهلًا ما تقوله الزوجة عن الغسالة التي انقطع سيرها. أطلق زفرة حارة، سبها وسب العيال. بدل ملابسه وتهيأ للنوم وهي مازالت تحوم حوله. قال إنه سوف يعاقبه في الصباح كي تسكت.

صمتت المرأة فعمّ السكوت البيت كله. ممددًا على السرير، ناظرًا إلى السقف، سمع هاني صوت خطوات تقترب. ظن أنها أمه فاصطنع النوم. فتحت أخته الكبرى باب الغرفة. تقدمت وجلست على طرف السرير. لم تشعل النور مكتفية بضوء الصالة الداخل من زجاج الباب. ربتت على كتفه وقالت:

- معلش يا هاني متزعلش. ماما خايفة عليك

فلم يرد ولم يتحرك

- انا عارفة انك صاحي. بس معلش والنبي متزعلش. ماما بتحبك

- اخرجي بره انا عايز انام

fb/mashro3pdf

قالها بلهجة جافة آمرة. خرجت أخته وأغلقت الباب. وتركته غير قادر على النوم، من الصهد الخارج من جسده ومن آلام لحمه الممزق.

fb/mashro3pdf

سمع محمد حسين صرخات ليلى وهي تشكو لزوجها ما فعله هاني. وكيف كانت هيئته حين عاد إلى البيت. وضع محمد يده على خصر زوجته. دفعها أمامه برفق على السلم كي يصعدا بسرعة. هربا من صراخ المرأة الذي لا يتوقف.

دخلت سناء إلى غرفة النوم مباشرة كي تغير ملابسها. وجلس هو على الكرسي المواجه للتلفاز. تحسنت حالتها قليلًا بعدما ذهب معها إلى طبيب أمراض الذكورة. كتب الطبيب الدواء له. وقد شعر محمد أنه قد كسب فرصة جديدة. أدرك أن رحيلها أكيد لو ظل على حاله. وحينها لن يستطيع أن يمنعها، وسوف تكون فضيحة لو طلبت الطلاق.

كل ما يريده أن تظل معه سعيدة دائمًا. ولا يعرف كيف يفعل هذا بعدما ابتلاه اللـه بما لا قبل له به، وبما لا يعرف له سببًا. تمنى أن ينجح علاج الطبيب، كي تظل معه إلى الأبد.

fb/mashro3pdf

نادته سناء من غرفة النوم كي يبدل ملابسه. دخل الغرفة، احتضنها وقبلها. تملصت من ذراعيه بدلال ضاحكة، ثم قالت وهي واقفة على باب الغرفة:

- هتتعشى؟

- آه.. بس اعملي حاجة خفيفة

بدل ملابسه وفتح التلفاز. دخل المطبخ وفتح زجاجة مياه غازية ساخنة. وأخذ كوبا زجاجيا كبيرا. استغل وقوفها في المطبخ ودخل غرفة المكتب. أغلق الباب وفتح الدولاب بحرص. أخرج زجاجة البراندي. صب حتى امتلأ ربع الكوب وسكب زجاجة الكولا كلها. ارتشف جرعة بتلذذ وأعاد الزجاجة إلى مخبئها. عاد إلى المطبخ ووضع الكوب في الثلاجة.

لم يرد أن تعرف سناء أنه يشرب، لكي لا يغضبها. جلس أمام التلفاز مسترخيًا حتى جاءت بالأكل. كان قد أعد لليلة إعدادًا خاصًا. بعدما انتهيا من تناول العشاء طلب منها أن تأتي إلى غرفة المكتب.

أخرج جهاز الاسطوانات الثقيل القديم الذي يعتز به، ويخاف عليه أكثر من أي شيء آخر. انتقى اسطوانة ووضعها في الجهاز. جاءت سناء بزجاجة مياه غازية لها وبكوبه دون أن تعرف أنها كولا مخلوطة بالبراندي.

fb/mashro3pdf

جلست على الأريكة ووضعت ما بيدها على المنضدة، وأنزل محمد الإبرة على الاسطوانة. انسابت موسيقى الفالس في الغرفة، وبعدما استمعا قليلًا، جلس محمد جوار زوجته يشرح لها كيف كتب شوستاكوفيتش هذا الفالس.

أمسك محمد الكوب بيديه بعدما اكتسب من الثلاجة برودة خفيفة. يشرب جرعات قليلة بين كل جملة وأخرى. وسناء في حضنه تؤمن على كلامه.

حدثها عن جمال الفالس. شرح لها كيف أن مؤلفات شوستاكوفيتش تدافع عن القيم الإنسانية النبيلة ضد النظام الشمولي الغاشم في روسيا. وكيف أنه كان منشقًا سريًا، رغم علاقته الجيدة مع النظام الروسي. قال إن شوستاكوفيتش كان الأذكى على الإطلاق. وأن هذا الكونشرتو من أجمل المقطوعات في العالم. يتخيل محمد حسين أن شوستاكوفيتش كتبه في أحد أجمل أيام الربيع البديع في روسيا.

كان البراندي المخلوط بالكولا قد شرد في دماء محمد حسين فأطلق عقدة لسانه. تكلم كثيرا، وسناء لم تفهم معنى النظام الشمولي، وكيف تعبر الموسيقى عن القيم الجيدة، لم تفهم ماذا يعني ميزان 3 على 4، لكن الموسيقى أعجبتها.

شعر محمد أن سناء كادت تنام. فرفع رأسه ناظرًا إلى المصباح

fb/mashro3pdf

النيون وقال بعدما وصل إلى حالة ممتازة من النشوة إنه يحب الموسيقى أكثر من أي شيء. فنظرت إليه سناء وقالت:

- أكتر مني؟

قالتها بنعومة فأعطاها قبلة طويلة. قال إنها فوق العالمين. أبعدها برفقٍ حتى يستطيع النهوض. رفع الإبرة فسكتت الموسيقى. وضع شريطًا في الكاسيت. بدأت أغنية فيروز من المنتصف وهي تقول: "يا حبيبي أنا عصفورة الساحات.. أهلي ندروني للشمس وللطرقات".

غار قلبه للحظات. أحس أن سناء هي من تقول. أبعد الخاطر عن رأسه وعاد ليجلس جوارها. أعادها إلى حضنه. عبث في شعرها بيده اليسرى، وكوب البراندي في يده اليمنى. حرك أصابعه على كتفها محاكيًا جملة البيانو في الأغنية.

تمنى محمد أن يظل منتشيًا هكذا إلى الأبد وسناء في حضنه. لعل تلك الغربة التي تحاصره طيلة الوقت تختفي ولو قليلًا.

fb/mashro3pdf

وصل الإمام الفارسي إلى بيت رزق المرشدي في تمام الثامنة صباحًا. بدل ملابسه ونصب السقالة الخشبية. جاء السيد بالقصعة مليئة بخليط الإسمنت والرمل، ووضعها على القائم الخشبي. صعد الإمام على السقالة وقذف الإسمنت بقوة إلى السقف.

حكى له السيد حكاية رزق المرشدي وأخته. قال إن رزق بك هو ابن فتح اللـه المرشدي تاجر الأقمشة والمانيفاتورة، الذي كان في وقت سابق صاحب أكبر وأشهر وكالة في المدينة كلها. ولما مات أغلقت الوكالة إلى الأبد.

تعجّب الإمام، فهو لم يربط بين الرجل وأبيه. وتعجّب أكثر عندما عرف أن جدّ "السيد" كان يعمل في وكالة الحاج فتح اللـه.

ترك فتح اللـه المرشدي شبين الكوم وذهب إلى بورسعيد. بعد داء عضال ترسّخ في جسد رزق الصغير. نصحه كبار الأطباء في القاهرة بالسكن قريبا من البحر، حتى يستنشق الولد هواءه

fb/mashro3pdf

باستمرار. وإثر اندلاع الحرب وتهجير سكان مدن القناة، ترك فتح اللـه وكالته وجاء بماله وزوجته ورزق وأخته إلى المدينة.

راجت تجارته أكثر من ذي قبل. وعندما شبّ الفتى أراد أبوه أن يحمل عبء الوكالة معه وبعد مماته. لكنّ الولد رفض وهجر التجارة. لم يفلح في التعليم وسار خلف الراقصات والغانيات في المراكز والقرى المحيطة حتى وصل إلى القاهرة.

وهنا اتخذ الأب قرارًا ظنّه صحيحًا حينها. أراد أن يبعد ابنه اللاهي عن كل هذا فأرسله كي يكمل تعليمه في أوروبا فيضرب عصفورين بحجر واحد: يبعد الفتى عن الراقصات والغواني بعد أن صارت سيرته على كل الألسنة، ويكمل تعليمه هناك.

كانت تلك فرصة ممتازة لم يحلم بها رزق قط. فجاب أوروبا كلها منفقًا نقود أبيه في البارات والملاهي. فما كان من أبيه إلا أن أعاده مرة أخرى وأجبره على زواج لم يدم سوى سنتين وانتهى دون أبناء. ثم مات فتح اللـه المرشدي وانتهت تجارته وسيرته ونسله تاركًا وراءه ثروة طائلة.

كان الإمام الفارسي يستمع وهو يتحرك بسرعة ورشاقة فوق السقالة متعجبًا من الحكاية ومن الثراء الفاحش. لم يتخيل أن هذا الرجل شبه المقعد، الجالس في الشرفة طيلة الوقت، قد فعل كل هذا.

fb/mashro3pdf

أكمل السيد وقال إن زوجة فتح اللـه المرشدي ماتت بعده بسنين معدودات. وقد عاود المرض رزق بشدة أكبر من ذي قبل فكف عن نزواته وسهراته واكتفى بالجلوس في الشرفة. تخدمه أخته الصغرى بعد طلاقها.

واخته اتطلقت ليه؟ سأل الإمام صبيّه فلم يُجب. قال إنها تطلقت منذ فترة طويلة، ومن يومها وهي تعيش مع أخيها. يجيء أبناؤها من حين لآخر لزيارة أمهم وخالهم.

وعندما انتصف النهار كان الإمام قد أنهى سقف الغرفة دون أن يترك نتوءًا واحدًا. أعطى للسيد نقودًا كي يحضر طعامًا، ووقف في الشرفة يدخن.

تطلع الإمام إلى الضريح الواطئ الذي لا يكاد يظهر بين البيوت التي تحيط به من ثلاث جهات. قطع شروده أصوات خطوات صاعدة. أدرك أن القادم ليس السيد فقد نزل لتوه. دخلت شيرين من باب الشقة المفتوح حاملة صينية كبيرة مغطاة. فألقى الإمام السيجارة وهب يحملها عنها ويضعها على الرمل وهو يلهج بعبارات الشكر.

قالت شيرين إن هذه أوامر البك. ثم وقفت تتطلع إلى الشقة وهي تسأل عما تم إلى الآن. دعاها الإمام إلى الدخول وهو يشرح ما تم.

fb/mashro3pdf

سبقته إلى الغرفة وهي تنظر إلى مواضع قدميها محاذرة أن تغوص قدماها في الرمال النديّة والإسمنت.

سار الإمام وراءها ناظرًا إلى ردفيها الكبيرين اللدنين، يتحركان بخفة مع خطواتها الواثقة البطيئة. منعتها السقالة الخشبية من الدخول، بينما انحنى الإمام ودخل ليقف في منتصف الغرفة ويشرح لها عما كان وما سوف يفعله.

همهمت شيرين وهزت رأسها. ولما انتهى الإمام من الكلام، قالت إن رزق بك يريد أن يكون كل شيء على ما يرام. فوعدها الإمام بأنه سوف يقدم أفضل ما لديه. انسحبت شيرين خارجة، وقد رفعت طرف ثوبها. فرأى الإمام قدميها البيضاوين الملفوفتين. غار قلبه واستيقظ فيه شبقٌ لم يعاينه منذ زمن. ولما وقفت على الباب قالت إن البك ينتظره بعدما ينتهي.

عاد الإمام للوقوف في الشرفة بانتظار عودة صبيه. أشعله جسد شيرين البض الفائر وعيناها اللوزيتان. صار يعبئ الدخان بعمق وينفثه بقوة. يستعيد ملامحها وتفاصيل جسدها. قطع تخيلاته مجيء السيد. تعجب لما رأى الصينية الكبيرة. سارع برفع غطائها فرأى ما عليها من فول وأجبان وخبز وبيض وعسل. كاد يتقافز من فرط اللذة. ملأ فمه وأكل بنهم دون أن يتكلم كعادته، والإمام يأكل ببطء شاردًا في جسد شيرين الذي أيقظ شهوته.

fb/mashro3pdf

أنهى الإمام الأكل سريعًا. دخل إلى المطبخ حيث وضع ملابسه. أخرج سنة أفيون من جيب بنطاله. وضعها تحت لسانه وشرب الشاي الثقيل كثير السكر بتلذذ.

وبعد انتهاء العمل لهذا اليوم نزل الإمام ليقابل البك. طرق الباب ومن خلفه السيد حاملًا الصينية الكبيرة. فتحت شيرين لهما ودعته للدخول. أعطاها السيد الصينية ورحل، وهو يتمنى أن يجلس معهما ليسمع ما يُقال.

جلس الإمام في الشرفة منتظرًا مجيء البك. يسمع حركة الشارع الصاخبة، ويرفع رأسه من حين لآخر كي ينظر من فوق السور وقد غابت الشمس إلا قليلا.

جاء رزق المرشدي متحاملًا على نفسه ويسير بصعوبة. قام الإمام وسلّم عليه بتبجيل كبير. جلس رزق أمامه. سأله عن سير العمل حتى الآن، ثم أثنى عليه ثناءً حسنًا. قال إن اختياره جاء في محله. والإمام يشكره بتواضع وهو يخبط بكفه المفرودة على صدره مبتسمًا. أخرج رزق من جيبه رزمة نقود. أعطاها للإمام وقال إن هذه دفعة أولى من أجره. وله مثلها أثناء سير العمل، وأخرى عند انتهائه. شكره الإمام ووضع النقود في جيبه. تحدثا قليلا، وبعد حين طلب الإمام الإذن بالانصراف، ثم سلم على رزق ورحل.

سار الإمام منتشيا بفعل النقود والأفيون وجسد شيرين الفائر

fb/mashro3pdf

اللدن. أشعل سيجارة وسار في شوارع المدينة التي هبط عليها الليل باردًا. لم يمش في طريقه المختصر المعتاد الى البيت. قادته قدماه إلى ميدان الطُمّيهي المزدحم الصاخب دائمًا.

لم يعرف لماذا قادته قدماه إلى هناك. ثم تذكر أن له صديقًا يمتلك محلًا في أحد الشوارع المتفرعة من الميدان. أراد أن يشتري جلبابًا لأمه وآخر لأخته. لكنه نسي مكان المحل تمامًا. استند بظهره على إحدى السيارات محاولًا أن يتذكر مكان المحل. وقد أحس بتناغم ما في حركة الباعة والعابرين. كأن خطواتهم على إيقاع واحد، وكأن النداءات المنغمة، وأبواق السيارات تتبادل مواقعها كي تشكّل نسيجًا ما. لم يدركه لكنه يشعر به.

ملأت الغبطة قلب الإمام بفعل الأفيون. ظل واقفًا مكانه ينظر إلى الحشود. يبدد دخان السيجارة في الهواء البارد. اختار شارعًا متفرعًا من الميدان عله يوصله إلى محل صديقه. وعندما توغل ووصل إلى نهاية الشارع، أدرك أنه أخطأ. فوقف ينظر وقد اعترته دهشة عارمة.

فالشارع قصير للغاية ولا يفضي إلى أي شيء. في نهايته ميدان صغير تحاوطه البيوت من كل جهة. ولا مدخل ولا مخرج للميدان سوى هذا الشارع. نظر الإمام إلى السماء التي أصبحت كُحليّة تماما. فرأى سرب حمام يحلق في سماء الميدان. يحلق فوق البيوت

fb/mashro3pdf

العالية في حركات دائرية. فتعجب من طيران الحمام ليلًا ومن هذا الميدان المغلق الصغير.

طالت وقفته إلى حد ما. فاتجهت إليه الأنظار المرتابة. اقترب منه أحد الرجال المسنين. حدق فيه مضيّقًا عينيه. سأله عما يريد. وقد ارتاب في هذا الغريب الذي دخل الشارع فجأة، ووقف ينظر إلى السماء فاتحًا فمه، ناسيًا السيجارة المشتعلة بين أصابعه.

أفاق الإمام مرتبكًا. نظر إلى الرجل ومن خلفه بعض سكان الشارع متحفزين. أزاح الإمام ارتباكه جانبًا ونظر في عينيّ الرجل. أجاب على سؤاله وذكر اسم صديقه الذي جاء يبحث عنه، فلم يعرفه السائل. وقبل أن يطرح أسئلة أخرى شكره الإمام وابتعد بسرعة.

عاد أدراجه وقد نسي أمر شراء الجلابيب لأمه وأخته. وعندما وصل على مقربة من البيت رأى زحامًا عند ناصية الشارع وسمع صراخًا. اقترب فرأى "أم عماد" وقد أمسكت بتلابيب "محمود رشاد" تكيل له الضرب والسباب وهو لا يملك لها دفعًا. ولا يقول سوى كلمة واحدة: "نزلي ايدك".

تجمع حولهما رجال الشارع والغرباء. لم ينجح رضا صقر أو زكريا الصايح في فض الاشتباك. والعابرون وقفوا كي يشاهدوا هذا الرجل الذي تضربه امرأةٌ، دون أن يعرف أحد سبب العراك.

fb/mashro3pdf

تدخل الإمام وحاول أن يجذب المرأة بعيدًا. طلب منها أن تهدأ. فأوقفته بنظرة غاضبة وقالت:

- ابعد انت يا امام.. ملكش دعوة

- هو ايه اللي حصل بس؟

- ابن الوسخة ده كان بيعاكس البت.. وفي الرايحة والجاية، يقولها أنا عايز أنام معاكي.. ورحمة أمي ما انا سايباه.

ظل الإمام يرجوها كي تكف وتبتعد، فقد صاروا مضغة في أفواه الناس، وقد نال محمود ما يستحق وزيادة. أقسم عليها برحمة زوجها الراحل. فألقت المرأة حذاءها على الأرض وارتدته، لكنها لم تفلت محمود رشاد.

ظل الإمام يتشفع حتى هدأت قليلًا. وهنا تدخل زكريا الصايح وجذب لها كرسيًا ودعاها للجلوس. فرفضت وهمت بالانصراف قائلة: مش هاقعد ولا هاتنيل. بس وحياة أمك لو بصيت للبت تاني هاعلقك على باب القهوة.

ثم انصرفت تاركة الناس يضحكون ويتغامزون. وعاد أربعتهم يجلسون بمزاج عكر. جاء صبي المقهى بالشيشة لزكريا. جذب عدة أنفاس متلاحقة، رفع طرف الجلباب ونفضه بعصبية عدة مرات، فبانت ساقاه المليئتان بالشعر والسروال الطويل الأبيض.

fb/mashro3pdf

التفت إلى محمود رشاد وسأله غاضبا:

- انت قلت للبت كده يالا؟

لكنّ محمود لم يرد. كان ووجهه غارقًا في الظلام، يشعر بالخزي والحنق. أعاد عليه "زكريا" السؤال:

- انت اطرش يالا؟ قلت للبت كده؟

- يا عم سيبني في حالي

- طالما مردش يبقى قال. ده عيّل وسخ

- انت كل يوم والتاني جايبلي مصيبة؟ مش لاقي غير "صفيّة الدهمان" وتشبط فيها.. انت عارف المرة دي كانت شغالة ايه؟ دي كانت بتتأجر في الخناقات زمان.. وبعدين ده البت قد عيالك.

- ده عيل غشيم يا عم.. النسوان كتير. ما يعمل اللي هو عايزه بعيد

- يا عم ده لا بيحل ولا بيربط.. هو لو كان قادر يعمل حاجة كان قعد يعاكس في النسوان طول الليل والنهار.. عايز تنام مع واحدة قد عيالك؟ جتك خيبة يا مقطف.

وفجأة هب محمود رشاد تاركًا المقهى وانصرف دون كلمة واحدة.

fb/mashro3pdf

- خد يالا رايح فين؟

قالها زكريا الصايح دون أن يعنيها. فهم لا يهتمون لأمره، ولا يعنيهم أين سيذهب أو متى سيعود. وبعد هذه الحادثة لم يره أحد في الشارع أو في الحي كله مرة أخرى، ولم يهتموا حتى بالسؤال عنه.

fb/mashro3pdf

استيقظ أحمد على نداءات أمه المتكررة. فقام ضيّق الصدر إثر كابوس جثم على صدره طيلة الليل. وقد لاحظ أن الكوابيس والأحلام السيئة الغريبة أخذت تراوده بشكل زائد في الفترة الأخيرة.

"بالسلامة يا حبيبي بالسلامة.

بالسلامة تروح وترجع بالسلامة.

تيجي زي الفرحة تيجي بابتسامة.

بالسلامة يا حبيبي بالسلامة"

انبعثت الأغنية من الراديو كما يسمعها كل يوم، دون أن يعرف من التي تغنيها. ودائما هذه الأغنية نذير وإشارة بأن الوقت قد أزف. وقد ضايقه إلحاح أمه فازداد توترًا. ولما نظر إلى وجهه في المرآة وهو يحكم أزرار القميص، رأى علامات الضيق والإجهاد.

ودون أن تنتبه أمه أفرغ محتويات حقيبة المدرسة. ترك فيها

fb/mashro3pdf

كتابين وكشكولًا واحدًا ووضع الساندوتشات، وتعمّد أن يتأخر حتى يرحل أصحابه. نزل واتخذ طريقًا مختلفًا. اتجه يسارًا وسار حتى منتصف شارع الجلاء. دخل من أحد الشوارع الفرعية الضيقة حتى وصل إلى شارع المدير. وعندما دخله اشتمّ رائحة الهواء الندي القادم من النيل.

عبر الطريق وجلس على أحد المقاعد الخشبية المطلة على النهر. أعطى ظهره لصخب الشارع، فرد قدميه على السور الحديدي، غير مبالٍ بأن يراه أحد المعارف أو الأقارب أو الجيران. غمرته شمس الصباح الشتائية الخفيفة، وانعكست على ضفة النهر. وهو ينظر شاردًا إلى الضفة الأخرى يسترجع حلم الليلة الماضية.

رأى نفسه في بيت غريب يحاول أن يغلق بابه. خائفًا من دخول فأرة سمينة بنية،. حاول منعها قدر ما يستطيع. ولما أغلق الباب دخلت الفأرة من ثغرة بين حلق الباب والسقف. زاد خوفه لما انقسمت الفأرة الكبيرة إلى ثلاثة فئران لها نفس اللون. حاول أن يضربها بالحذاء فلم يستطع. ركض خلفها في كل أرجاء البيت. لكنه لم يتمكن من قتلها أو طردها. وقف في صالة البيت يلهث. أوجعته تلك النظرة الخائفة اللائمة في عيني أمه التي وقفت خلفه خائفة، عاجزة، لا حول لها ولا قوة.

استرجع أحمد كلام أم فوزي عن الأحلام والرؤى التي يرسلها

fb/mashro3pdf

اللـه لعباده. أحس أن هذه الأحلام - التي زادت وطأتها في الفترة الأخيرة - تحمل رسائل ومعانٍ تستعصي عليه ولا يفهمها. أحس أن هذه الأحلام لها علاقة بالمشاجرات الدائمة بين أبيه وأمه في الفترة الأخيرة. وقد فهم بديهيًا أن لعمته علاقة بما يحدث. لكنه لم يعرف كيف نجحت في الإيقاع بينهما. وما زاد الأمور سوءًا حصوله على درجات متدنية في الرياضيات في الفصل الدراسي الأول، فصار جزءا من مشاجراتهما، حيث يحمّل كل منهما الآخر مسئولية إفساده رغم درجاته الجيدة جدًا في بقية المواد.

ولما شعر أحمد أنه بحاجة إلى الابتعاد عن أجواء البيت المقيتة والمدرسة المملة هرب. أحس بالجوع بعد حين فأخرج الشطائر من الحقيبة. استرجع دخوله المقابر وهروبه الليلي، وتخيل لو عرف أبواه بما فعل، فغص وابتلع الخبز بصعوبة وأطاح بهذا الخاطر بعيدًا.

وبعدما انتهى من الأكل نظر في ساعته. حمل الحقيبة وعاد أدراجه، فالبيت خالٍ الآن. تمنى فقط ألا يعود أبوه أو أمه أحدهما مبكرًا على غير العادة. فهو الآن يستطيع أن ينام ملء عينيه، كي يرتاح من أرق الليالي الماضية. فالكوابيس غالبًا ما تأتيه ليلًا.

fb/mashro3pdf

عاد محمد حسين إلى البيت منتشيًا. تخطّى برك الماء والوحل. يتقافز بخفة رافعًا قدم البنطال اليُمنى. دخل البيت فوجد سناء جالسة أمام التلفاز وقد وضعت على كتفيها شالًا صوفيًا. ابتسم وحياها. خلع حذاءه المتسخ بالوحل جوار الباب، وجلس جوارها يلتقط أنفاسه.

تعجبت سناء من سروره المفاجئ، طلب منها أن تعد الغداء ريثما يغيّر ملابسه. استرجع الحلم الرائع الذي استيقظ على إثره، وعلى إثر الانتصاب الصباحي الذي فاجأه. وجعله يثق في الدواء الذي كتبه الطبيب.

قال لسناء وهما يتناولان الطعام إنهما لابد أن يجربا مفعول الدواء هذه الليلة، فضحكت خجلة حتى ظهرت الغمازتان.

دخلت سناء لتنام ودخل محمد غرفة المكتب. اعترته رغبة عارمة في العزف على الكمان، بعد أن تركه لفترة طويلة. أخرجه

fb/mashro3pdf

من جرابه. نفض عنه الغبار الرقيق. أعاد دوزنة الأوتار التي أرختها الرطوبة والإهمال، وداعب الأوتار بأصابعه.

عرف محمد منذ زمن أنه لن يكون موسيقيًا جيدًا. عرف أنه لن يكون "بريمو كمان" في أي فرقة وأنه سيظل دائما "سيكوندو".

عندما تقدم للحصول على منحة للدراسة في روسيا، عزف عدة مقطوعات من تأليفه، وأخرى اختار بعضها، وأخرى اختارها له الأساتذة أعضاء اللجنة. لم يفز بالمنحة ولم تشرح اللجنة أسبابها. مر على أعضائها واحدًا واحدًا لعله يعرف دوافع رفضهم.

أحدهم كلمه عن القدرات والإمكانيات، وأن لكلٍ حظُّه من الموهبة. قال آخر إن مقطوعاته تعكس خيالًا فقيرًا. زهد الكمان والموسيقى كلها واختل إيقاعه واكتأب. وانتهى به الحال مدرّسًا للموسيقى في مدرسة لا تولي لها اهتمامًا.

أمسك محمد القوس، انطلقت "كل ده كان ليه" من بين أصابعه تلقائيا. تمنى كثيرًا أن يعزفها صولو في الفرقة. كان يجلس دائمًا على الكرسي الخشبي في الصف الثالث أو الثاني. والآن سيعزفها صولو وهو وحيد.

انسجم وغاص وانتقل بين السلالم والأحرف بدقة وحرفية، حتى أشبع ذاته وانتهى. تخيل المشاهدين يصفقون له. وضع القوس على

fb/mashro3pdf

يساره والكمان على يمينه على الأريكة. غرق في أحلام اليقظة حتى نام دون أن يشعر.

استيقظ على صوت التلفاز الآتي من الصالة. خرج فرأى سناء تشاهد التلفاز وتأكل اللبّ والفول السوداني. جلس جوارها وظل على حاله صامتًا حتى استعاد وعيه.

- أحضرلك العشا؟

- لأ.. مش دلوقتي

قالتها سناء بعدما انتهى المسلسل الذي كانت مستغرقة فيه تمامًا. قامت تعدل المؤشر على قناة أخرى لتشاهد مسلسلًا آخر. ذهب محمد كي يستحمّ. غيّر ملابسه ثم دخل المطبخ. أخذ زجاجة مياه غازية وكوبا ودخل غرفة المكتب.

أغلق الباب بالمفتاح. خلط البراندي بالمياه الغازية. فتح الراديو وجلس يسمع ويشرب مسترخيًا. استرجع حلم الليلة الماضية الذي أيقظ فيه النشوى. حاول أن يسترجع شكل المرأة التي كان يجامعها فلم يستطع لكنه استعاد اللذة. تغلغل البراندي في دمه. أكسبه حرارة شعر بها في وجهه وأطرافه.

عاد يجلس جوار زوجته. حضنها وقبّلها وقال لها ما تحب أن تسمع. اصطنعت الخجل، لكن أحشاءها كانت تفور. دعاها إلى

fb/mashro3pdf

غرفة النوم، فقالت له أن ينتظر حتى ينتهي المسلسل. قام وأغلق التلفاز، ثم جذبها من ذراعها وهما يضحكان.

نام جوار سناء دون أن يغلق النور كعادته. أراد أن يشبع عينيه من لحمها الأبيض، ومن تفاصيل جسدها العارم الفوّار. قال لها كل ما يعتمل في قلبه، وكل ما يتمنى فعله همسًا. أثارتها كلماته الفاحشة وأنفاسه الحارة في أذنها. رأت في عينيه رغبة مشتعلة. أرادته أن يفتك بها، وأن تظل تحته طيلة الليل تتلوى وتموء.

احتضنها بقوة. مصّ شفتيها طويلًا. أعطته ثديها، تعرف أنه لن يفعل به إلا طيبًا. مصّ حلمتيها فذابت. كاد أن يمزقهما بأسنانه تأوهت بشدة وأبعدت رأسه بيديها. لعق بطنها وسرّتها نازلًا إلى أسفل. وسناء تضرب في رأسها الأجراس حتى غابت. أحس بالانتصاب قويًا فاعتلاها. تأوّهت وطلبت منه أن يوغل فيها. جلس على ركبتيه، وعندما أوشك على إشعال دمها انتهى انتصابه فجأة. وسناء نائمة على ظهرها، مغمضة عينيها تنتظره.

أُقعي محمد على ركبتيه يغمره العرق شاعرًا بالحنق والغضب. مستكينًا غير قادر على الحراك. لم يرد أن يرى عينيها، فخرج إلى الصالة الباردة. جسده ساخن من فرط الإجهاد والغضب. تلك كانت فرصته الأخيرة، وهكذا أصبح الطلاق وشيكًا.

دخل الحمام ووقف تحت الماء البارد يرتجف. تخيل نفسه وحيدًا

fb/mashro3pdf

دون سناء فبكى. حاول أن يكبح دموعه فتصاعد نشيجه المرّ رغمًا عنه. سمعته سناء فدخلت الحمام واحتضنت رأسه بين ذراعيها. أسندته إلى ثديها المكتنز العاري. غمرت جسديهما المياه الباردة. أغلقت سناء الصنبور وهدأت من روعه دون أن يكف عن البكاء.

رقد محمد على الأريكة في غرفة المكتب طيلة الليل. وسناء في الغرفة الأخرى. وفي الصباح ذهب إلى المدرسة، وترك لها ورقة تقول إنها حرة في طلب الطلاق.

ولما عاد دخل البيت دون كلمة واحدة. بدّل ملابسه واستلقى على السرير، دخلت سناء خلفه، قبّلت خده وقالت إنها لن تتركه أبدا.

- أنا مش رايح لدكاترة تاني

قالها غاضبًا، جلس على السرير وقال إن العلاج لن يُجدي طالما لا يعرف الأطباء سبب ما أصابه، وإن لها الحق في طلب الطلاق.

- برضه مش هاسيبك

قالتها ومسحت على وجهه. فصمت ونظر إلى الجدار. وضعت رأسه في حضنها وقالت إنه حرّ في تطليقها لو أراد. أما هي فلن تتركه أبدًا.

fb/mashro3pdf

قبل أن ينتهي الإمام من العمل نهائيًا، استدعاه رزق المرشدي. استقبله في جلسته الدائمة في الشرفة. توطدت علاقتهما في الفترة الأخيرة، لما وجده الإمام متواضعًا يفتح المجال فضفاضًا من أجل مزيد من الكلام.

قال رزق إنه رجل مريض، شبه مقعد، وقد وجد فيه أمانة لا توجد لدى كثير من الحرفيين. فليأت بأصدقائه المشهود لهم بالكفاءة والأمانة مثله، وليوفر عليه عناء البحث ومتابعة العمال ومحاسبتهم، وسوف يحصل على أجره كاملًا كأنه لم يزل مستمرًا في عمله. أدرك الإمام أنه قد ينتظر طويلًا حتى يجد عملًا جديدًا فوافق، ووعد البك بأن كل ما يريده سوف يكون.

انتهيا من الكلام وعدّ النقود والحساب. مرت فترة صمت طويلة بعض الشيء. قطعتها رشفات الإمام للشاي. ثم سأله رزق:

- انت متجوز يا إمام؟

fb/mashro3pdf

- لأ.. مرضيتش اتجوز بعد المرحومة أم سعد

- أحســـن.. النســـوان دول صنف نمرود.. تبقـــى عايزة تاخد القرشـــين اللي ف جيبك وشـــوية اللبن اللي في ضهرك وخلاص

- مرضيتش أجيبله مرات أب تنكد عليه.. واهو اختي وامي عايشين معانا

- اه.. كده احسن برضه

استرسل رزق في الحديث عن أسفاره ونزواته. حكى عن ستة أشهر قضاها في "مالمو" مع البنت الوحيدة التي أحبها فعلًا. راح كي يتعرّف إلى أسرتها.

حكى عن البيوت والناس، عن الجليد الذي يغمر كل شيء في الشتاء، وعن اللون الأخضر الذي يجتاح كل شيء في الصيف. ثم قال:

- هو اللي عندنا ده برد.. ده هزار يا راجل

- ازاي يا بيه؟

- الشتا هناك صعب.. مية البحر كلها بتبقى تلج

- للدرجة دي؟!

fb/mashro3pdf

- أمّال.. مفيش هناك شمس خالص.. بس كل حاجة هناك حلوة

- ومالمو دي فين يا بيه؟

- في السويد

ترك الإمام أذنيه للبك وشرد في مالمو. تخيل خضرتها والسماء التي تمطر ثلجًا والنساء الشقراوات فانتعش. جاءت شيرين بأكواب العصير ثم جذبت كرسيًا وجلست تتابع الحديث.

- ورحت فرنسا.. رحت باريس وبوردو.. بس حبيت مارسيليا أكتر حاجة

- ودي فين دي يا بيه؟

- في الجنوب على البحر

- بـــس الفرنســـاويين عصبيين أوي.. شـــيك بـــس عصبيين.. ونسوانهم نار يا إمام!

ضحك رزق بعد جملته الأخيرة واهتز بطنه الكبير. ضحك الإمام ضحكة عصبية مرتبكة. متعجبًا كيف يقول البك كلامًا كهذا أمام أخته التي ضحكت بدورها. ظل الإمام يسمع رزق بك ويدخن. حتى انتهى البك من الكلام والأسئلة. حل الإرهاق بالإمام بعد يوم عمل طويل فاستأذن وانصرف.

fb/mashro3pdf

جلس الإمام في المقهى شاردًا مع "زكريا" و"رضا". استرجع تفاصيل شيرين. استرجع حركاتها ولون عينيها وشفتيها وكل تفاصيل جسدها. لاحظ زكريا شروده وصمته فسأله:

- خير يا ابو سعد.. مالك؟

- خير يا معلم.. تعبان م الشغل بس

- فرح البت نورا بنت أم عماد بعد بكره.. هتروح؟

كان زكريا يتكلم وهو يمد يده في جيب الجلباب العلوي. أخرج قطعة أفيون كبيرة تكفي أسبوعًا. مده يده وأعطاها للإمام.

- أكيد لازم أروح. نعمل الواجب ونجامل

- أم عماد ما سبتش حد. جاملت طوب الأرض

- جدعة وصاحبة واجب... واهو نتقي شرها برضه

ضحكوا من كلام رضا صقر. سأل الإمام عن "محمود رشاد" الذي اختفى تمامًا بعد مشاجرته معها. قال زكريا إنه لا يعرف عنه شيئًا. ثم استرسلوا في أحاديث شتى، والإمام يصغي شاردًا.

fb/mashro3pdf

بسملت أم فوزي وهي ترفع باب المحل الصاج. فتحت الراديو فانبعث صوت الشيخ محمد رفعت في أرجاء الشارع. نثرت الماء أمام المحل، ووقفت تقلي الباذنجان وتنتظر القادمين في صبيحة الجمعة الهادئة.

طلب منها الإمام مرارًا أن ترتاح وتغلق المحل فرفضت. تعلم أن ابنها قد يجلس في البيت شهرًا. بينما المحل يضمن دخلًا ثابتًا حتى لو كان قليلًا. وهي قد اعتادت الحركة والاستيقاظ مع أذان الفجر. ودائمًا كانت تطلب من اللـه أن يكفيها شرّ الراحة والقعود.

جاء أحمد فقابلته بترحاب وأجلسته، سألته عن أبيه وأمه وهي تعلم ما بينهما. سألته عن الدراسة فقال إن كل شيء على ما يرام.

انشغلت عنه بتلبية طلبات الزبائن، وهو جالس يتابع حركتها. نظر إلى ساعديها وقد شمرت عنهما كُمّ الجلباب. حدق طويلًا في الخاتم الذهبي والدبلة في يدها اليسرى. كأنهما يعضّان جلد كفها

fb/mashro3pdf

المجعد المعروق. تخيل أنها لو أرادت خلعهما فلن تستطيع.

أراد أن يسألها هل عرفت بالمشاجرة التي حدثت بين أم عماد ومحمود رشاد، لكنه تردد فأحجم. يتردد ويكف عن الكلام كلما أراد أن يخبرها أنه سمعها وهي تتلو الكلام الغريب كي تُفهمه معانيه. يتردد فلا يحكي لها أحلامه كي تؤولها. أراد أن يقول لها أشياء كثيرة. لكنه دائما يمسك عن الكلام. دائما يخاف أن يتكلم فتخفت رغبته وتجف.

لاحظت أم فوزي تململه في كرسيه، وهي تغرف الفول من القدرة الضخمة. فالتفتت إليه وقالت مبتسمة:

- انت مش واخد بالك من حاجة؟

فرفع أحمد عينيه إلى السقف والجدران ونظر بعينين زائغتين وقال:

- آه.. دهنتوا المحل

ضحكت أم فوزي ملء شدقيها وقهقهت على غير العادة. فتوتر أحمد وظن أنها تسخر منه، فعادت تقول:

- لأ مش دي.. انت مش واخد بالك اني مشيت الناس كلها وسبتك قاعد؟

نظر إليها غير فاهم فأكملت:

fb/mashro3pdf

- سيبتك قاعد عشان انت وشك حلو وانا باستبارك بيك.. اول ما بتيجي الناس بتيجي وراك.. ها عايز ايه بقى؟

- بجنيه فول وبجنيه طعمية

- على عيني حاضر

أعطته ما يريد وأقرأت أمه السلام. وتركته يعود إلى البيت حائرًا دون أن يفهم ما قالت.

عاد أحمد إلى المدرسة في بداية الأسبوع. شعر برغبة قوية في التحدث إلى شخص يثق فيه. أراد أن يقول كلامًا كثيرًا لكنه لم يعرف لمن. كانت الرغبة جامحة على غير العادة. ظل يفكر وينتقي من أصدقائه فلم يجد من يصلح. وفي الوقت ذاته شعر برغبة في الابتعاد عن أصدقائه وعن زملائه في الصف. ولما حان وقت الفسحة، تلكأ في الخروج إلى الفناء.

ركض زملاؤه خارجين وظل جالسًا وحده، شرد حينًا، ورويدًا رويدًا شعر بأن العالم حوله يشف، وبأن وعيه قد صار أكثر يقظة وحدّة. شعر أن بداخله كلامًا كثيرًا لابد أن يخرج. وتلقائيًا أمسك بالقلم، وكتب في الكشكول المفتوح أمامه.

ظل يكتب ويكتب ويكتب حتى سوّد صفحات كثيرة. ترك يده تتحرك كأن لها إرادة خاصة. ولم يستيقظ إلا عندما سمع الجرس

fb/mashro3pdf

إيذانًا بانتهاء الفسحة. سمع الخطوات الراكضة نحو الصف. فخبأ الكشكول في الحقيبة، شاعرًا بغبطة وارتياح لم يشعر بهما من قبل.

وعندما عاد إلى البيت انكب على فروضه المدرسية. جلس على منضدة السفرة الكبيرة ومن حوله الكتب والكشاكيل والأقلام. انتهى وظل جالسًا. يكتب ما يعتمل في نفسه. وكلما مر أحد أبويه ينظران إليه متعجبين من جلسته التي طالت على غير العادة.

جلس أحمد يشاهد التلفاز مع أمه. وأخته تلعب على الأرض بدميتها. لم يكن مهتمًا بما يدور في التلفاز. فهذا الصمت الجاف الذي يعم البيت يجرحه. صار أبوه غائبًا أغلب الوقت. فهو إما في غرفته أو في المقهى. أراد أن ينزل الشارع فظل يبحث عن حجة ما، وبعد حين سأل أمه:

- مش عايزة حاجة من تحت؟

- روح هات ورقة وقلم

ثم أملت عليه ما تريد من أجبان وخبز وبيض.

"وانا عايزة حاجة حلوة" قالتها أخته الصغيرة دون أن ترفع رأسها، وهي مستمرة في اللعب. أعطته أمه النقود وتلت عليه تعليماتها الدائمة: عد الباقي قبل ما تمشي.. وخد بالك م الفلوس المقطعة.

fb/mashro3pdf

كان الشارع مظلما على غير العادة بعدما تعطلت كل أعمدة الإنارة. سار أحمد ببطء ولحفيف خطواته على الإسفلت صوت، يتناثر في الشارع المظلم الصامت.

دخل المحل المزدحم. وقف أمام البنك الخشبي. حيا عم سلامة البقال وانتظر حينًا. جاءه الرجل فأعطاه ورقة المطلوبات. سمع صوتًا ناعمًا ينادي عم سلامة ويحييه. نظر في الفاترينة العاكس فرأى منال جارته.

تمعن في ملامحها وجسدها. لم يرها منذ زمن، ولاحظ أنها تغيرت كثيرًا. صارت أنثى تامة النضج. غار قلبه وتنهد. سأل نفسه كيف لم ينتبه من قبل لعينيها الزرقاوتين وشعرها البني. تذكرها عندما كانت تلعب معهم في الشارع منذ سنين قليلة حين كانوا بعدُ أطفالا.

انصرف أحد الزبائن فأخذت منال مكانه لتقف جوار أحمد. نظر إليها وابتسم وقال:

- ازيك يا منال؟

- الحمد للـه.. ازيك انت يا أحمد

- الحمد للـه، انتِ عاملة ايه؟

- كويسة واللـه. أنا لسه مسلمة على طانط امبارح.

fb/mashro3pdf

استرسلا في الكلام مستغلين خلو المحل من الزبائن وانشغال عم سلامة. ثم انقطع حبل الكلام عندما دخل أحدهم المحل. خجلا من نظراته الفضولية وتربصه. أعطى عم سلامة الأكياس لأحمد، فحملها ومضى متلكئا. يعد النقود الباقية على مهل في انتظار خروج منال.

لم تخرج سريعًا وطال تلكؤه. سار ببطء حتى تمر منال جواره فلم تمر. وعندما دخل الشارع نظر فرآها قادمة خلفه. مرت جواره فسألها عن صحة أبيها كي تبطئ. قالت إنه قد صار أحسن حالًا. انتبه أحمد إلى خجلها لأنهما يتحدثان في الشارع فصمت. وبعدما سارت عدة خطوات نظرت إليه من فوق كتفها وقالت ضاحكة:

- على فكرة.. انا شفتكو وانتوا بتحدفوا الرمل على ام عوني.. بس مقلتش لحد.

وأكملت طريقها وتركته مبتسمًا، غير قادر على رؤية تفاصيل جسدها الفائر في الشارع المظلم.

أضاءتْ عناقيدُ النور الملونة المعلقة على بيت صفية الدهمان شارع الصايح المظلم منذ أسبوع أو يزيد. وتصاعدت أغاني الزفاف من البيت في الليلة السابقة للعُرس. نادتْ صفيّة الدهمان على أحمد ورفاقه وهم يلعبون. أعطتهم الشيكولاتة وقالت إن السيارة التي

fb/mashro3pdf

تحمل الكراسي آتيةً بعد قليل. فليصفوا الكراسي في الشارع أمام مدخل البيت.

كفوا عن اللعب ووقفوا في انتظار السيارة. وبعد حين أتى رجلان على دراجة بخارية ومعهما جوال كبير. وقفا تحت البيت ونادى أحدهما على أم عماد. خرجت ورمت لهما رزمة نقود. نثرا نشارة الخشب الملونة أمام البيت ورحلا بعدما فرغ الجوال. ثم جاءت السيارة ذات الصندوق بما عليها من كراسٍ.

نزل عماد أخو العروس وهو يترنح كالعادة وبين أصابعه سيجارة. تقدم أحمد ورفاقه وساعدوا السائق في إنزال الكراسي وصفّها. رحلت السيارة وجلس عماد ينتظر القادمين مشعلًا سيجارة تلو الأخرى. ثم دعا أحمد ورفاقه للجلوس جواره ففعلوا.

جاءت "نورا" العروس في كامل زينتها مع صديقاتها. احتضنها أخوها وقبلها وتمنى لها السعادة. صعدت مع صديقاتها وتعالت الزغاريد من مدخل السلم. عاد عماد للجلوس على الكرسي وهو يخبط على فخذه بكفه المفتوحة، هز رأسه بأسى وخاطب نفسه بلسان معوج وقال:

- البت كبرت يا جدعان!

تقاطر المهنئون بعد صلاة العشاء. النساء صعدن إلى البيت،

fb/mashro3pdf

والرجال جلسوا على الكراسي في الشارع. حمل أحمد وأصدقاؤه الكراسي المتبقية إلى الأعلى. وصلوا منهكين يلهثون. دعتهم أم عماد للدخول، فرفضوا تهيبًا وخجلًا من التواجد وسط النساء الكثيرات. جذبتهم أم عماد من أيديهم وأجلستهم عنوة. جاءتهم بأكواب الشربات وبمزيد من الشيكولاتة. قالت لهم والعرق يغمر جبهتها: "اوعوا تمشوا". ثم وضعت الطبل الكبير في حجرها، ورفعت عقيرتها بالغناء، وصديقات ابنتها يرددن خلفها ويقمن بدور الكورال.

دخلت أم فوزي مع ابنتها سحر، وتعجبت لما رأت سعد ورفاقه وسط النساء. ثم جاءت ليلى زوجة رضا صقر، فاستقبلتها أم عماد استقبالًا حارًا. جاءت ومعها سناء زوجة محمد حسين. بنت سمراء لدنة قامت لترقص على إيقاع الطبل والدف والتصفيق. هزت أردافها ومالت بصدرها إلى الأمام. فتحت فمها تصطنع الشبق وتأوهت كالملسوعة. فاجتاحت أحمد تلك اللذة الغامضة وتسارعت دقات قلبه.

جذبت أم عماد إحداهنّ وراقصتها. والبنات يصفقن على إيقاعها ويغنين كما تشاء. وقفت في منتصف الصالة رافعة عقيرتها بالغناء. حلّت شعرها ولفت بالحجاب خصرها. تحركت بخفة رغم جرمها الكبير. فارتج اللحم المكتنز تحت العباءة. رفعت وجهها إلى السقف

fb/mashro3pdf

ودارت. عضت على شفتها السفلى، والجالسات يضحكن خجلًا. خلعت الحجاب ولفته حول خصر البنت التي ترقص معها. وقفت تصفق وتغني وتحث الجميع على الغناء والرقص والتصفيق.

دخلت سميحة محارب وسلمت على العروس وأمها. جلست جوار أم فوزي وسحر. شعر أحمد بخجل شديد عندما رأته أمه. توقف عن التصفيق وحاول أن يختبئ خلف أصدقائه. ضايقته نظرتها العاتبة، كأنها تقول له لماذا جئت إلى هنا؟ ظلت عيناه معلقتين بالبنات الراقصات. أنفاسه مبهورة من فرط التشهي، وقد اشتعلت روحه الملتهبة أكثر.

نظر إلى صدورهن الرجراجة وأردافهن اللدنة. خصورهن الدقيقة تروح يمينًا ويسارًا. استرقّ النظر إلى العروس، وقد جعل الماكياج الرخيص وجهها شاحبًا، وضاعف الكحل من تأثير عينيها الواسعتين القويتين. ثم ارتبك أحمد وعاد ينظر في كوب الشربات الخالي عندما رأى أمه تنظر إليه. وقد فضحته عيناه المليئتان شبقًا. حينها فقط أدركت سميحة أن ابنها قد كبر وصار رجلًا ينظر إلى أجساد الصبايا ويشتهي، حتى لو كان هو نفسه لم يدرك بعد.

fb/mashro3pdf

طرق الإمامُ الباب ففتحت شيرين. سأل عن البك فقالت إنه نائم. اعتذر وهمّ يعطيها المفتاح ويرحل. فدعته للدخول كي يقول لها ما تم بينه وبين جمعة البلّاط، وهي بدورها ستنقله لأخيها.

جلسا في الصالون، وضع رزمة نقود على المنضدة، جوارها ورقة دون فيها الوارد والمنصرف. شرح لها الإمام كل شيء، وكانت شيرين تسأل كي يطول الحديث. أحبت قوامه الرشيق الرجولي وشاربه الأسود وعينيه المكحولتين. أحبت خجله وارتباكه كلما نظر في عينيها أو لامست أصابعه يدها. اشتهته وتعمدت إثارته. وهو لا يعرف أنها من اقترحت على أخيها أن يستأجره كي يباشر العمل. رأت في عينيه اللهفة كلما صعدت بصينية الطعام، وانزعاجه إذا تأخرت. أدركت أنه يصمت حين يسير خلفها لأنه يحدق في مؤخرتها.

غرقت في خواطرها حينًا، ولما أفاقت كان الإمام لم يزل مسترسلًا في الحديث. قال انتهت أعمال السيراميك ولم يبق سوى النقاش.

fb/mashro3pdf

أمسكت شيرين بالورقة الموضوعة على المنضدة وقرأتها. سألته عن كميات الرمل والإسمنت والسيراميك المتبقية.

سمعا أخاها ينادي فذهبت إليه، ثم عادت داعية الإمام للقائه. دخل الغرفة شاعرًا بالحرج. رأى رزق المرشدي نائمًا على السرير. وجهه شاحب وقد تجمعت القشور البيضاء على جانبي فمه. رحّب به وسأله الإمام عن صحته ودعا له بالشفاء.

انحنت شيرين على أخيها النائم وهو يكلمها همسًا. فازداد الإمام حرجًا واحمرت أذناه. تململ في جلسته. ثبت عينيه في الأرض. حرك قدميه حتى حواف السجادة. وضعهما على البلاط يتلمس برودته.

سأل رزق بصوته الذي صار رغويًا أكثر من ذي قبل عما تم. فأعاد الإمام ما قاله لشيرين، ورزق يهز رأسه ويتنفس بصعوبة. أصر الإمام على أن ترى الهانم ما تم في الشقة حتى الآن. وكي يستطيع تلافي أي أخطاء أو تغيير أي شيء قبل أن تبدأ أعمال الطلاء.

صعدا معا، فتح الإمام الباب ورفع مفاتيح الكهرباء. سارت شيرين تتفقد أرجاء الشقة ناظرةً إلى الأرض. وقفت أمام أكوام الرمل والشكائر واضعةً يديها في خصرها. قالت إن تكلفة النقل والاسترجاع ستكون أكثر من ثمنها، ولتوضع على سطح البيت.

fb/mashro3pdf

انحنت محدقة في السيراميك. ينظر إليها الإمام وقلبه يدق بعنف. دخلت كل الغرف. تتفحص وتسأل وتنحني. تتكلم بصوت خفيض ناعم يرن بين جنبات الشقة الخاوية. والإمام يجاريها ويجيب. يسير خلفها محدقًا في جسدها اللدن.

وقفت في المطبخ. قالت إنه روح البيت كله. ويخص المرأة وحدها. أثنى الإمام على لون السيراميك الذي اختارته. أراد أن يسأل لماذا قاموا بتجهيز الشقة ثم تراجع. استدارت وواجهته حين أرادت الخروج من المطبخ، فرأى مفرق ثدييها. حاول أن يقاوم ألا ينظر فلم يستطع. لاحظت نظراته فضمت صدر الجلباب دون أن تغلق الأزرار.

دخلت الغرفة الصغرى. وقفت في الشباك الخالي من الضلف المطل على المنور. نبهته إلى سرعة تركيب الشبابيك حتى لا تدخل الفئران، فهي تخاف منها كثيرًا. كانت تتكلم وقد ضمت ثدييها واستندت بمرفقيها على الشباك.

اقترب الإمام منها كمجذوب يتحرك بلا إرادة. قال إن المنور نظيف. وقف جوارها ورويدًا رويدًا اقترب حتى وقفا في الشباك الضيق والتصقا تمامًا. شعر بأنفاسها وزلزلته رائحتها الحلوة وصوتها الناعم. لم تتحرك بعيدًا ولم تنهره فالتصق بها أكثر. يرد

fb/mashro3pdf

على أسئلتها دون وعي وهو ينظر إلى الفتحة في صدر العباءة، وقد برز ثدياها المضمومان أكثر.

لوت شـــيرين رقبتها ونظرت في عينيه مباشـــرة. لم يســـتطع أن يرفـــع عينيه عن ثدييها. تركته ينظـــر طويلًا وهي تتكلم كأنها غيـــر مهتمة. ولما أدركت أنه قد اشـــتعل تمامًـــا تراجعت وهمت بالانصراف. وتلقائيًا مس الإمام ظهرها بيده وقال بصوت مبحوح ملوهشـــبق:

- رايحة فين؟

ثم تقدم منها خطوة وجعل ظهرها في الحائط. تقدم الإمام خطوة أخرى. شعرت بأنفاسه تلفح وجهها فتركت نفسها له تمامًا. امتصّ شفتيها الورديتين. اعتصر ثديها الأيسر. انفجرت شهوتها لما حكّت كفه الخشنة حلمتها. تأوهت حتى تثيره أكثر. وفجأة فرت من تحت ذراعه هاربة. ركض وراءها. دفعها على الرمل واعتلاها. رفع العباءة فرأى فخذيها الأبيضين اللدنين. أوغل فيها فضمت ساقيها بقوة واحتضنته أكثر. غار الرمل تحت ثقلهما وتحت قوة اندفاعه. أشعل دمها وغاص في لحمها الأبيض الطري. انفجر ماء شهوتها فنشبت أظافرها في لحم ذراعيه وظهره. تأوهت ولفت ساقيها حوله. أرادت أن تسجنه فيها كي تستمر لذتها إلى الأبد.

fb/mashro3pdf

ظل الإمام يتقلب في سريره طيلة الليل، شاعرًا بفداحة ما فعل. يلوم نفسه لأنه خان الرجل الذي أكرمه. والآن صار بيته محرمًا عليه. سوف يعطي المفاتيح للسيد ليعيدها إليه. نام في السادسة صباحًا، واستيقظ بعد العصر. أكل صامتًا وعاد إلى غرفته بكوب الشاي. وضع سنة الأفيون تحت لسانه، وتمدد على السرير مشعلًا سيجارة.

نزل متجهًا إلى بيت السيّد صبيّه، يخبُّ البرد في شراييه وعظامه. وفي ذات الوقت يشعر بالعافية تجتاح جسده من أثر الأفيون.

عندما اقترب من ميدان الشيخ حسانين، عرف من الزحام والصياح والأنوار الملونة أن ليلة المولد الكبيرة قد اقتربت. شق الميدان المزدحم بالناس وبخيام المريدين. عن يمينه حلقة للمجاذيب. يرفعون أصواتهم بالصياح والذكر. يتحركون ويدورون بملابسهم المهلهلة. وعن يساره عربات اليد الخشبية، بما عليها من طبول

fb/mashro3pdf

ولوحات نيشـــان وحب العزيز. وتلقائيًا وضع الإمام يده على جيبه الخلفي كي يطمئن على وجود محفظته.

وصل إلى شارع الإسكندراني ومنه إلى عطفة أبو حليمة. وقف أمام البيت ونادى على السيد. خرجت أمه من الشرفة وقالت إنه لم يعد بعد. دعته الإمام للجلوس قليلًا. اعتذر وألقى لها المفاتيح كي يعطيها السيد لرزق بك، فهو يعتذر عن العمل بسبب مرض مفاجئ ألمّ بوالدته. انزعجت المرأة وسألت عن صحة والدته فطمأنها ورحل.

عاد الإمام أدراجه شاعرًا بأنه قد تخلّص من حمل ثقيل. ترك قدميه تقودانه إلى أي مكان. استغرق في شروده. يسترجع ما مضى وينهشه الندم. أفاق على صوت الدفوف الآتي من الميدان. اقترب من الجامع الكبير. سمع الابتهالات آتية من الداخل. جلس على العشب في الصينية الحجرية الكبيرة مواجهًا الجامع. يتلمس التواشيح والأذكار، حوله الباعة والمريدون والمجاذيب والسحرة والنشالون والعابرون وأبناء السبيل. تربع واستند إلى السور شاردًا. أراد السكينة فغمرته وحشة وكآبة وخوف من الآتي.

قاطعت شروده امرأة عجوز. اقتربت منه وهي تردد: "مدد.. مدد" تمط حروفها وترددها بلا انقطاع. رمت في حجره رغيفًا مليئًا بالفول النابت، وقالت: "اصلب قلبك الليل طويل". نظر إلى الرغيف.

fb/mashro3pdf

تساقطت منه بعض حبات الفول النابت الذي يكرهه ووقعت على الأرض. شعر بحنق شديد وقال محدثا نفسه:

"الليل طويل منذ عرفته يا حاجّة. فلا عون ولا سند ولا مدد، فلماذا تطلبونه؟ الليل طويل منذ رأيتُ سعد يسقط من فوق السقالة. انتفض مثل دجاجة وانسكب مخه على الأرض. سافرت فأكلت من الشارع وعدت هاربًا جوار رجل ميت. سعاد ماتت وهي نائمة جواري. مات فوزي ودفن في أرض غريبة. أقمت الليل باكيًا كي أنال ما أريد ولم أنل شيئًا. صرخت وغضبت فانبح صوتي. تشاجرت وهادنت فخسرت. سعيتُ وما ربحتُ. دعوت ولم يستجب لي. ضحكت وبكيت فما تغيّر شيءٌ، فلماذا تطلبون العون والمدد".

ثم انتفض قائمًا يغمره غضب عارم، ورحل تاركًا الرغيف مرميًا على الأرض.

fb/mashro3pdf

اعتاد محمد حسين الجلوس وحيدًا لفترات طويلة في غرفة المكتب، يشرب البراندي الممزوج بالمياه الغازية، يدخن ويسمع الموسيقى. تركته سناء يشرب ويفعل ما يريد ويجلس وحيدًا كيفما يشاء. رفضت الطلاق وفضلت البقاء جواره. زاد شعوره بالذنب ومزقته الشكوك التي لم يستطع كبح جماحها أبدًا. خرج إلى الصالة محاولًا ألا يترنح. سمع خطوات سناء وحركتها الدائبة في المطبخ. فتح التلفاز وجلس يشاهد فيلمًا قديمًا.

دخلت سناء غرفة النوم. بدلت الملاءات ورتبت الغرفة. صارت أكثر نشاطًا في الفترة الأخيرة. تخرج رغبتها المشتعلة في حمل المراتب الثقيلة والحركة الدائبة بحثًا عن الغبار. فتحت الشرفة فدخلت الشمس ورسمت مثلثًا على صدر محمد الجالس في الصالة. ضيق عينيه ألمًا من أثر النور المفاجئ. نظر إليها وهي تنفض الغبار العالق على باب الشرفة.

fb/mashro3pdf

أحس أنها تنفــض التراب بقوة، بطريقة مبالــغ فيها. كأن هذه الضربات ذات الصوت العالي إشـــارة لشـــخص ما كي يطل من شـــرفته كي يراها. طالت وقفتها كثيرًا. خرج محمد إلى الشـــرفة واســـتند بصدره على الســـور. نظر بتمعن وشـــكٍّ إلى الشرفات والشبابيك المواجهة، فقالت سناء:

- خش جوه يا محمد عشان التراب

لم يردّ وظل متســـمرًا مكانه. زادت شـــكوكه. تريده أن يدخل لكي لا يرى عشـــيقها الذي تخرج إليـــه. وربما يأتي إليها وهو في المدرسة. يعرف أن شهوتها متأججة، وأنها لن تصمد طويلًا. هكذا حدّث نفسه.

انتهت سناء فدخلت وظل محمد على حاله. جاء صوتها من الداخل تنادي عليه وتسأله هل تجهز الغداء الآن أم تنتظر قليلًا. فدخل وأغلق باب الشرفة، وأجاب أن نعم.

أكلا صامتين. وقد استشرى الصمت بينهما في الفترة الأخيرة. صمت محمد في البداية خجلًا من زوجته. لكنه الآن يصمت من فرط الوساوس والشكوك التي تهاجمه طيلة الوقت. أراد أن يكسر الصمت، فحكى عن إحدى زميلاته في المدرسة. تغيبت عن العمل طويلًا ولما عادت عرفوا أنها مرت بظروف سيئة. اكتشفت خيانة زوجها وطلبت الطلاق.

fb/mashro3pdf

جاء كلامه مبعثرًا غير مترابط. لا يعرف من أين يبدأ ولا كيف ينتهي. وسناء تطلق همهمات من حين لآخر. ازدردت الطعام بصعوبة. كانت قد قررت منذ وقت قريب أن الحياة معه أصبحت لا تحتمل. استنفدت كل وسائلها وطاقتها كي تهدئ من روعه وتطمئنه. تستطيع أن تعيش معه وهو عنّين. أما وهو يراقب كل حركاتها وسكناتها، وترى الاتهام في عينيه طيلة الوقت فيستحيل أن تحتمله أكثر.

انتهى محمد من الأكل. دخل غرفة المكتب. صبّ كأسًا من البراندي. أخرج جهاز الاسطوانات. انبعث كونشرتو البيانو الثاني لـ"رحمانينوف". فتح الشباك المطلّ على الشارع الخلفي والذي نادرًا ما يفتحه. رأى السماء رمادية ولفحه الهواء البارد. كان يحفظ الكونشرتو نغمة نغمة. يحب نقاء سيرجي وشجنه، يفهم كل ما يقول. كان "سيرجي" رفيقه الدائم في الشتاء.

شرب أربع كؤوس كبيرة. بدأت الحركة الثالثة من الكونشرتو فارتجف. "رحمانينوف" يعزف على البيانو بنفسه، وقد وصل هنا إلى الذروة. زادت نشوته أكثر. ترنح، فجلس على المنضدة. أشعل سيجارة وطوّح يديه في الهواء يمينًا ويسارًا، كأنه يشير إلى الأوركسترا. بدأت جملة الوتريات المهيبة الفخمة. مسّه الوجد وكاد يصرخ. رفع صوت الكونشرتو أكثر. خرج إلى الصالة المظلمة.

fb/mashro3pdf

نادى على سناء بلسان معوجّ فلم تردّ. ظل يدور ويهذي حتى أصابه دوار.

خرجت سناء إليه دامعة العينين. اقتربت منه فدفعها بيديه. وعاد إلى المكتب مترنحًا. جلس على الأريكة وأمسك بالقوس والكمان. لم يستطع أن يتم جملة واحدة. أخطأت يده اليسرى مكان الأحرف، وارتعشت اليمنى الممسكة بالقوس. وضع الكمان على المنضدة وتمدد على الأريكة. أشار بيديه إلى الأوركسترا الوهمية. وسناء واقفة في الصالة ترى ما يفعله وتبكي، وقد قررت أن الطلاق بات وشيكًا.

ركض أحمد خائفًا وسط حقول غارقة في الظلام، ومن خلفه مدرعاتٌ وجنودٌ، جواره آخرون لا يعرفهم يركضون خائفين مثله. سمع صراخ الجنود يقترب منهم، فزاد خوفه وركض أسرع. سمع إطلاق النار وأزيز الرصاصات جواره. اختبأ خلف جدار بيت يقف وحده. نظر خلفه لم يجد شيئًا. اختفت المدرعات واختفى الجنود. وفجأة تغير المكان تماما. رأى نفسه في مدينة كبيرة بشوارع إسفلتية واسعة مبللة بمياه المطر.

لم يعرف أين هو ولا لماذا يهرب. أراد أن يسأل أي شخص يراه. لكن شوارع المدينة كانت خالية تمامًا. تلفت حوله خوفًا من المُطاردين فلم يجد أحدًا. عاد المطر يهطل مرة أخرى. احتمى

fb/mashro3pdf

بمدخل أحد البيوت. وما إن استراح قليلًا واسترد أنفاسه، حتى سمع دوي انفجار هائل.

ظل في مكمنه خائفًا. انقطع المطر فخرج كي يرى مكان الانفجار. فمن المؤكد أن الناس سوف يحتشدون على مقربة منه. سار قليلًا في الشوارع المظلمة الخالية. ومن بعيد رأى حارس عقار أسمر جالسًا على كرسي أمام بناية كبيرة. تقدم نحوه كي يسأله عما يحدث في المدينة. ولما اقترب أدرك أنه ميت وقد مالت رأسه إلى اليمين وظلت عيناه مفتوحتين.

ركض أحمد مرتعبًا كأن الموت يطارده. وبعد حين من الركض الخائف وجد نفسه في منطقة شعبية مليئة بالناس وبالبنايات الواطئة. عكس الجانب الآخر المليء بالأشباح والموتى. خاف أن يسألهم أين هو حتى لا يثير حفيظتهم. فوجد نفسه يسأل دون إرادة منه عن "العمدة". تعجب من سؤاله وتعجبوا هم أيضا. فتلك ليست قرية كي يسأل عن عمدتها. عاد وسأل بطريقة أخرى عن الكبير في هذه المنطقة.

وقف الناس ينظرون إليه بدهشة. تشاوروا في أمره وفي إجابة السؤال. لم يفهم من كلامهم شيئًا. كانوا يتكلمون بلغة غريبة. كأنهم ينطقون الكلام بالعكس. وتعجب من كونهم يفهمون كلامه.

ظل طيلة الليل يسأل ويدور في الشوارع الترابية المزدحمة.

fb/mashro3pdf

شرح لسيدة مسنّة ما يريد قوله بالإشارات. فنادت بلغتها الغريبة على ولد صغير. سار مع أحمد حتى يوصله إلى كبير المنطقة. دخلا بيتًا مكونًا من طابقين. فتح الصبي الصغير باب غرفة، ثم تركه ورحل.

رأى أحمد رجلًا وسيمًا قويًا ممددًا على الأرض. ينز الدم من ساقه جراء طلق ناري، لكنه كان يبتسم رغم ذلك. وسيدة في منتصف الثلاثينيات ترضع طفلًا. رفعت عينيها ونظرت إليه مرتابة. ثم وقعت عيناه على رجل عريض المنكبين، صافي العينين. كان جالسًا على الأرض مستندًا على عصا خشبية وحوله أطفال يلعبون.

أدرك أحمد أن هذا الرجل هو من يريد. عرفه من طلته ومن نظرته القوية. سأله - دون أن يتكلم- عما يريد. وقف أحمد على باب الغرفة. هم أن يتكلم فرأى خلف الرجل الكلمات التي قالتها أم فوزي محفورة على الجدار. فارتبك وتلعثم وغص حلقه بالكلام. ثم غامت الصورة كلها فجأة واستيقظ من النوم.

نظر إلى الساعة على الجدار المواجه فوجدها الخامسة والنصف. دخل المطبخ كي يشرب ولم تزُل غصة حلقه من أثر الحلم بعد، ولم يستطع أن ينسى نظرة الرجل المستند على العصا الخشبية. سمع حفيف أقدام على السطح. نظر في غرفة أبويه فلم يجدهما.

ما إن فتح باب الشقة حتى لفحه برد شديد. شم رائحة المطر

fb/mashro3pdf

ورأى الماء الغزير يبلل الأرض ودرجات السلم. صعد إلى السطح حافيًا أحس بالبرودة تخترق لحمه. رأى والديه في الظلام يدفعان الماء ناحية المزاريب، لكي لا تتسرب الرطوبة إلى سقف البيت.

يفعلان هذا بعد كل مطر غزير. واقف حينًا دون حراك فلم ينتبها له. رأته أمه فجأة فجفلت. صاحت فيه: "انزل انت ايه اللي جابك؟" هبّت رياح باردة فارتجف أكثر. وضع قدمه في بركة ماء صغيرة فوجدها باردة للغاية. "انزل يا زفت هتاخد برد" قالتها أمه صارخة وهي تدفع الماء بقوة. اقترب أبوه وقال بهدوء: "انزل عشان اختك لو صحيت تلاقي حد معاها ومتتخضش" واستدار يكمل ما يفعله.

نزل أحمد درجات السلم ببطء حتى لا تنزلق قدماه. أغلق باب الشقة وشعر بدفئها. رأى أخته نائمة بعمق. تمدد على السرير والتحف بالأغطية. ظل على حاله ينتظر نزول والديه. يسمع حفيف أقدامهما على السطح، ثم نام دون أن يدري.

وفي طابور المدرسة الصباحي، تمعّن أحمد في نظرات المدرسين إلى مدرسة المواد الاجتماعية الواقفة أمامه استعدادًا لدخولها الحصة الأولى. وفي الفصل تمعّن في ملابسها الضيقة، وجسدها اللدن وهي تسير جيئة وذهابًا. أحب شكل ثدييها النافرين، ورائحة عطرها الذي لا يتغير. ورأى في عينيها قسوة وصلافة.

fb/mashro3pdf

عاد أحمد إلى البيت وحده. شعر أن بداخله شيئًا ما قد تغير. لكنه لم يعرف كيف ولا متى تغير. يتعمد أحيانًا أن يذهب ويعود وحده. لم يعد يلعب مع أصدقائه. كف عن مشاركتهم كلامهم ومزاحهم. وعندما يعود إلى البيت، يختار أي كشكول يدون فيه كل ما يريد. ثم يمزق ما كتبه.

بدل ملابسه وجلس على المنضدة الخشبية التي يستعملها كمكتب. فتح كتاب اللغة العربية والكشكول الأحمر. انتبه إلى أنه نسي تدوين التاريخ في أعلى الصفحة. كتب اليوم والتاريخ. الاثنين 12 أكتوبر 1992. أنهى جزءًا كبيرًا من فروض اللغة العربية. نادته أمه كي يتناول الغداء. جلسوا أربعتهم على المائدة. وقبل أن يبدأوا تناول الطعام شعروا باهتزاز عنيف. تحرّكت الأطباق، وسقطت الكرات الزجاجية من المصباح على زجاج المنضدة فكسرته.

- زلزال!

صرخ أبوه وهب فزعًا. حملت أمه أخته الصغرى وجرت ناحية الباب. لكنها وقفت فجأة بأقدام مضطربة. أعطت البنت لأبيه ودخلت غرفة النوم. وبسرعة شديدة خرجت ترتدي الروب وتحكمه حول جسدها.

ركض أبوه حاملًا أخته وهي تبكي وتصرخ. وفي الشارع كان الجيران يركضون متجهين إلى الشارع العمومي. "ابعدوا عن عواميد

fb/mashro3pdf

النور" قالها أبوه صارخًا فجذب أحمد أمه بعيدًا. رأى أصدقاءه وذويهم يهرولون وعلى وجوههم أعتى علامات الفزع والرعب. الأرض تهتز والكل خائف من انهيار البيوت القديمة. فلو سقطت لابتلعت الجميع تحت أنقاضها.

امتلأ رصيف الشارع الرئيسي بالهاربين من الزلزال. خرج سكان الشوارع المجاورة. وقفوا ينتظرون انهيار أول بيت. كأنهم ينتظرون محتضرًا قبل لحظات من موته الوشيك.

ثلاثون ثانية مرت على الجميع كدهر. سكنت الأرض. والنساء بين صراخ وبكاء. ضرب زكريا الصايح كفًا بكف وقال: "دي القيامة قامت يا ولداه!".

بعد حين هدأت القلوب الراجفة قليلًا. بدأت التعليقات والأسئلة. ضاع أغلبها وسط الزحام. انتبه أحمد فجأة إلى أن عيون الرجال كلها مصوّبة نحو فتحية زوجة أحمد جمعة. نزلت إلى الشارع بجلباب شفاف يظهر ملابسها الداخلية. سال لعاب رضا صقر. فلم يحاول أن يهدئ من روع زوجته ولا بناته. لم يسأل عن ابنه الغائب في هذا الوقت الحرج.

تجاوزت "صفية الدهمان" الصدمة سريعا. تجرأت على دخول الشارع. جذبت عماد من يده. قالت: "يالا يا اخواننا.. خلاص مفيش حاجة. البيوت كلها سليمة أهي. روحوا اطمنوا على حاجتكو..

fb/mashro3pdf

الحرامية بيستغلوا الظروف اللي زي دي".

ثم دخلت ســـاحبة ابنها من يده. تبعهـــا الدمرداش ومعه زوجته وبناتـــه. حـــثّ الجميع على العـــودة. لكن الرجـــال جميعهم وقفوا مترددين. أرادوا أن يشبعوا أنظارهم من جسد فتحية. فهم لن يروها ثانية بملابس شفافة.

شق الدمرداش الحشد. سار يوسف عاشور جواره حاملًا البنت الصغيرة الباكية. ومن خلفه زوجته وابنه.

تفحّص يوسف عاشور جميع الجدران باحثًا عن الشروخ والشقوق. حذّر أحمد وسميحة من الاقتراب من مفاتيح الكهرباء. فتح التلفاز متلمّسًا الأخبار. رأى الفاجعة كاملة على الشاشة. البيوت المهدمة ورجال الدفاع المدني يحاولون إخراج الأحياء والأموات من تحتها. كان الزلزال بقوة 6 ريختر. قال مذيع نشرة الأخبار إن هذا أقوى زلزال يضرب مصر منذ أكثر من مائة عام.

تدفقت المعلومات، والمشاهد المفزعة، والإحصائيات الأولية عبر النشرة العاجلة. و"سميحة" تبسمل وتحوقل، تطلب من اللـه أن ينجي الأقارب والأحبة. انتهت النشرة، فأطفأ أبوه التلفاز. جلسوا ثلاثتهم واجمين لم تفارقهم الصدمة بعدُ والبنت نائمة على الأريكة.

تكلم يوسف بعد فترة صمت طويلة. قال إن اللـه كان بهم رحيمًا

fb/mashro3pdf

لأن البيت لم يتصدّع. ولم يسقط أي بيت في الشارع. نظر أحمد إلى السقف وإلى الثريا التي تساقطت منها الكرات الزجاجية. حملت أمه أخته الصغيرة النائمة ووضعتها في السرير.

وبعد أن غابت الشمس تمامًا انقطع التيار الكهربائي. شهقت سميحة فزعة. فأشعل يوسف ثلاث شمعات وضع واحدة في غرفة البنت النائمة، واثنتين جوارهم. وبعد ثلاث ساعات من انقطاع التيار الكهربائي. قالت سميحة والقلق ينهشها إنها تريد أن تطمئن على أخواتها. فنزل يوسف وذهب بالسيارة كي يطمئن على الجميع.

وجلس أحمد مع أمه على ضوء الشمع في صمت تام إلى أن نام على الأريكة، واستيقظ على صوت أبيه يطمأن أمه ويقول إن الجميع بخير. لم يتهدم بيت أي منهم ولم يصبهم مكروه.

ثم سأل أحمد عن هاني. وهل رآه في المدرسة اليوم فردّ بالإيجاب. جلس يوسف، وقال وهو يفكّ أزرار المعطف الأسود إنهم يبحثون عنه الآن في المنطقة كلها، دون أن يجدوا له أي أثر.

fb/mashro3pdf

- اللـه يا دايم هو الدايم ولا دايم غير اللـه!

جاء الهتاف مهيبًـــا كثيفًا بإيقاع رتيب. يردده الكل في آن واحد وبنغمـــة واحدة. ترجّ الخطوات الأرض رغم ســـيرها الخاشـــع. اصطدم الهتاف بجدران البيوت حتى كادت تتصدع. غشيت الشمس الرؤوس فزادتهم لهيبًا، وارتعشت الأشجار رغم اختفاء الريح.

خرجتْ الجنازة من جامع القاضي. عطلت حركة السير واحتلت شارع مستشفى الصدر الرئيسي كله. رآها العابرون الغرباء فرفعوا سباباتهم وتلوا الشهادة. أهل الحي الذين فاتتهم صلاة الجنازة انضموا إلى الحشد، فأخذ يتعاظم كلما تقدم عدة خطوات.

عبر المشـــيعون من أمام مؤسســـة رعاية البنيـــن. أطلّ الأيتام ومجهولو النسب برؤوسهم الحليقة والبيجامات الكستور المتسخة. تابعـــوا مرور الجنـــازة بذهول من خلف الحديـــد الموضوع على الشـــبابيك. لم يصدقـــوا أن الفتى مات على بعد أمتـــار قليلة منهم. يعرفونه جيدًا، هو الذي ملأ الحيّ بمشاغباته ولم يسلم منه أحد.

fb/mashro3pdf

كان الإمام الفارسي رابع أربعة يحملون النعش. اقترب بعض المشيعين يريدون حمله رغبة في نيل الثواب وللتخفيف عنه، لكنه تمسّك بالنعش، رفض أن يترك موقعه رغم المسافة الطويلة المتبقية.

انحرفت الجنازة تاركةً الشارع الرئيسي ودخلت شارع الصايح. فعبره يصلون إلى المقابر. كان المقهى مغلقًا لأول مرة منذ وفاة الصايح الكبير. يمشي زكريا على يسار رضا صقر، والد الفقيد. تأبط ذراعه الأيسر خشية أن يسقط مغشيًا عليه. أمر زكريا أحد صبيانه بإنزال باب المقهى الصاج كي يعلن أن الإغلاق ليس مؤقتًا. فقد قرر إغلاق المقهى ثلاثة أيام حدادًا على روح الفقيد ابن صديقه الأقرب. شهق الأب المفجوع، بكى حتى جفت عيناه. يعتصر قلبه إحساس ثقيل بالذنب، كلما جال بخاطره أن وفاة هاني عقاب إلهي على نزواته.

تغيّر شكل المسيرة في الشارع الضيق الطويل. اضطربت الحمامات على الأسطح ورفرفت بقوة. صاح ديك في غير ميعاده. هربت القطط فزعةً من الأقدام الكثيرة. احتمت بمداخل البيوت الرطبة. انكمشت وهي تموء مقوسة ظهورها شاهرة مخالبها.

مر النعش أمام بيوت لم يبق فيها سوى المسنين غير القادرين على الحركة، حتى طارق خليفة انضم إلى الجنازة على كرسيه ذي العجلات. نظر كلٌ إلى بيته لا إراديًا. تذكر "محمد حسين" أنه ترك العصافير بلا طعام ولا ماء. رأى صالح أبو العزّ الشرخ الذي

fb/mashro3pdf

أحدثه الزلزال وقد اتسع أكثر خلال ليلة واحدة. الدمرداش لاحظ أن واحدة من بناته تنظر من خلف خصاص النافذة. رأته البنت فأغلقت الشباك واختبأت. ضغط الدمرداش على عضلات فكه بقوة. قرر أن يعاقبها لما يعود، لأنها خالفت أوامره بألا تخرج أي منهن أثناء مرور الجنازة من الشارع.

نيفين المنغولية وقفت في فناء البيت عارية تمامًا. تعلقت بالشجرة العالية فاتحة فمها. يسيل اللعاب على ذقنها وصدرها. ضحكت بصوت عالٍ وأصدرت شخيرًا. رآها بعض المشيعين فأشاحوا بأنظارهم عنها. ارتجفت الشجرة وأسقطت بضع بذور يابسة كبيرة على رأسها. صرخت بعنف وبكت. انتبهت لها أختها التي كانت تشاهد الجنازة. فسحبتها عنوة إلى الداخل.

اقترب النعش من نهاية الشارع، ولم تصل آخر الجنازة إلى أوله بعد. استبق أحدهم المسيرة إلى شارع عبد السلام عارف. أوقف العربات وأشار للسائقين أن جنازة سوف تمر. البعيدون سمعوا الهتاف ملء الحناجر، والقريبون انتبهوا إلى إيقاع الخطوات الكثيرة. قام الجالسون ورفعوا سباباتهم يرددون الشهادة وترحموا على الفقيد. النساء بكين داعيات اللـه أن يغفر له وأن يلهم أمه الصبر، وألا يفجع قلب أم على ولدها أبدًا.

وصلت الجنازة إلى المقابر فاستقبلها اللحاد. وقد أخبره أحدهم منذ الصبح الباكر بمن سيأتي ومتى. قاد المسيرة عبر طرقات

fb/mashro3pdf

المقابر المتشعبة المتشابهة. خففت أشجار البونسيانا والكازوارينا من وهج الشمس. لكنّ التراب الذي أثارته خطواتهم ألهب الأنوف والحلوق.

- اسعى.. اسعى.. اسعى يا عبد اللـه!

قالها أنور العطار مخترقًا الصفوف يحث المشيعين على السير أسرع. اختفى صوته سريعًا وسط الهتاف المهيب. حاول أن يتوغل أكثر فلم يستطع. أخرج منديلًا مسح به عرقه من فرط الإجهاد والحرارة، وسار على إيقاع الجمع مجبرًا.

دخلت المسيرة شارعًا بالغ الضيق. توقفت أمام فناء المقبرة. فتح اللحاد البوابة الصدئة فأصدرت صريرًا، وقد أكلت الرطوبة الفناء فجعلته نخرًا متهالكًا. اكتظ المكان بالناس، حاول أنور أن يتوغل مرة أخرى. وقف في ظل شجرة عالية أمام الفناء مباشرة. نظر عن يساره فرأى يوسف عاشور والدمرداش فسلم عليهما.

نظر أنور ناحية النساء في نهاية المسيرة، فرآهن ملتحفات بالسواد وقد احمرت أنوفهن من فرط البكاء. رأى ليلى أم الفقيد وجوارها ابنتها الكبرى. وانتبه أنور إلى أن البنت قد صارت أنثى تامة النضج.

دخل اللحاد القبر بظهره، غاب قليلًا ثم مد يديه يطلب الجثمان. نزع أحدهم سجادة الصلاة التي تغطيه، وتعاون الإمام الفارسي مع شخصين آخرين على حمله. تعالت الهتافات المهيبة تردد "لا إله

fb/mashro3pdf

إلا اللـه" حتى كاد الفناء النخر الضيق أن يتصدّع. رأى الواقفون الدم النازف من رأس الفتى المكسور يلوّث الكفن. تعالت صرخات النساء، فنظر إليهن أنور العطار مغتاظًا. مسّ يد الدمرداش، مطّ رقبته حتى وصل إلى أذنه. طلب منه أن يسكتهن وقال متأففًا:

- كده الواد يتعذب

نهرالدمرداش النسوة وطلب منهن أن يسألن اللـه له الرحمة والمغفرة.

ألقي رضا بنفسه داخل القبر. حاول الحاضرون منعه. تشبث حتى دخل ومن خلفه الإمام الفارسي. جثيا على ركبهما فتركت دموعهما آثارًا على التراب. فكّ اللحاد الأربطة عن يدي الصبي وبطنه وقدميه وأزاح الكفن عن وجهه، ثم حلّ الرباط الذي يحكم غلق فمه.

ارتمى رضا علـى جثة ابنه وانخرط في البكاء. شـهق فدخل التـراب فمه. سـعل حتى كاد يختنـق. بغلظة أمـر اللحاد الإمام الفارسـي أن يشدّه ويخرجا، فارتمى رضا على أرض الفناء باكيًا. سـاعده الحاضرون على الوقوف، وهم يذكّرونه باللـه وأن يصبر ويحتسب. أراد الإمام أن يواسيه، لكنه أدرك أن كل ما سيفعله دون جدوى، فآثر الصمت ومسح دموعه في شاله.

خرج اللحاد ينفض يديه. أعطاه ابنه قصعة مليئة بخليط الإسمنت الأبيض والجبس. رصّ القرميد وملأ الفراغات بالخليط. أغلق الفتحة بإحكام، وبقطعة خشـب صغيرة كتب اسـم الفقيد وتاريخ الميلاد

fb/mashro3pdf

وتاريــخ الوفاة. وضع ابنه جريدة نخــل خضراء فوق القبر، ونثر قليلًا من الماء.

غسل اللحاد يديه من أثر الإسمنت. واجه الجمع وجال في الوجوه بثقة، ينظر إليهم بعينه الواحدة. ثم بدأ خطبته المعتادة التي يلقيها بأداء مسرحي تمرن عليها آلاف المرات، كي يبث الرهبة في قلوب السامعين.

ذكرهم بأن "هذا هو مصيرنا جميعا وأن علينا أن نعمل من أجل هذا اليوم الآتي لا محالة". استرسل في الكلام حينًا، ثم قال فجأة: "ادعوا لأخيكم إنه الآن يُسأل!" عمّ صمت ثقيل جرحه حفيف أوراق الشجر وهسهسات الداعين. وبعد فترة صمت قصيرة ارتفع صوت اللحاد مرة أخرى يطلب من الجمع أن يؤمن وراءه.

غصّ حلق محمد حسين وهو يؤمن مع الجمع. كان ينظر من حين لآخر لامرأته، فيراها مثيرة، شهية بالملابس السوداء. رفع يديه باكيًا يسأل اللـه الفرج، ويدعو للميت بالرحمة. استندت سميحة من فرط التعب إلى جدار مقبرة، فاتسخت ملابسها السوداء بالجير. تنظر إلى ابنها من حين لآخر كأنها تطمئن على وجوده. فتراه صامتًا جوار أصحابه وقد احمر وجهه من أثر البكاء. رفع أنور العطار يديه بالدعاء، ينظر من بين فرجات أصابعه إلى اللحاد. توجس خيفة من عينه العوراء ووجهه اليابس. استعاذ باللـه وأشاح بعينيه بعيدًا.

fb/mashro3pdf

انتهت مراسم الدفن. خرجت النساء إلى أول الشارع وانتحين جانبًا. خرج رضا والإمام الفارسي وزكريا الصايح، ومن خلفهم أعمام الفقيد وأخواله. وقفوا على يمين الخارجين مكوّنين صفًا واحدًا يتقبلون العزاء من الحاضرين.

احتلّ السرادق جزءًا كبيرًا من شارع مستشفى الصدر الرئيسي، وأغلق حارة كاملة. عُلّقت مكبرات صوت على أعمدة الإنارة، ووضع كرسي المقرئ العالي المذهّب في المنتصف وأمامه الميكروفون.

علــق العمال الثريات الضخمة على الأعمدة الخشــبية. وخلف الســرادق وُضعت منضدة كبيــرة عليها الأقداح والســكر والبن والينسون. وضع زكريا الصايح صبيان المقهى تحت تصرف رئيس العمال. واستعد الجميع لاستقبال المعزين بعد صلاة العشاء.

جلس رضا مع إخوته باب السرادق. وعلى مقربة منه جلس الإمام الفارسي وزكريا. دخل الشيخ خيري المقرئ مع أفراد بطانته. سلّم

fb/mashro3pdf

على أهل الفتى وجلس على كرسيه العالي. ثنى قدميه تحته، عدّل وضعه وملابسه، وطلب كوب ينسون.

انكبّ أحد مساعدي الشيخ على جهاز الصوت. يختبر الميكروفون، يطرق عليه بأصابعه. كرر لفظ الجلالة ثلاثًا. في حين وضع مساعد آخر شريطًا خاليًا في جهاز الكاسيت جوار الشيخ الذي جلس يشرب الينسون ببطء، ويتابع الحركة الدائرة مضيقًا عينيه.

تقاطر المعزون إلى السرادق. أخذ الشيخ إشارة البدء. أمسك أحد مساعديه بالميكروفون وقال المقدمة المعتادة:

"مــن أراد الدنيا فعليه بالقرآن، ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن، ومن أرادهمــا معًا فعليه بالقرآن. معنا ومعكم في هذه الليلة الطيبة المباركة الشــيخ "خيري عــوض" القارئ بالإذاعــة والتليفزيون وإذاعة القــرآن الكريم. يُطلب تليفونيًا من الرقم 630994 منشــية العجمي - مركز بيلا - كفر الشــيخ. والآن يتلو علينا وعليكم اليوم ما تيسر من سورة هود".

ارتفعت تلاوة الشيخ في مكبرات الصوت، وتردد الصدى في كل أرجاء الحي. يهلل أفراد البطانة للشيخ بين مواطن السكت والوقف. وبعد بداية التلاوة كثر عددُ الداخلين فكاد السرادق يمتلئ عن آخره. دارت أقداح القهوة المُرّة على الحاضرين. في حين قام أحد العاملين في الفِراشة بدور الدليل، يرشد الداخلين إلى الكراسي الخالية.

fb/mashro3pdf

وقف رضا وإخوته على باب السرادق يستقبل المعزين. يسمع كلمات العزاء بوعي مشوش. والإمام يشرب القهوة ويدخن شاردًا في حال الفقيد الصغير، في أول ليلة له في القبر. تمنى أن تترفق به الملائكة، فكيف لها أن تعذب طفلا. دائما ما كان الإمام يكره أن يسمع هذا الحديث إذا تطرق له الخطباء في صلاة الجمعة. يكره كلامهم عن عذاب القبر المليء بالوعيد والثبور. يزعجه افتعالهم وصراخهم. ولم يفهم الإمام أبدًا كيفية محاسبة الملائكة للميت. أتراه يصحو من موته ثم يعود ويموت مرة أخرى؟ هل سيمر الأمر وكأنه حلم؟ لم يفهم الإمام هذه الأمور أبدًا.

بدأت الاستراحة القصيرة بانتهاء التلاوة. تبرّع البعض بتوزيع السجائر على الجالسين. فرَد المقرئ قدميه اللتين لم تصلا إلى الأرض. عدل وضع العمامة على رأسه. حيّاه القريبون منه قائلين: "ربنا يفتح عليك يا مولانا"، ومشى مساعدوه بين المعزين يوزعون بطاقات دعائية تحمل اسمه ورقم هاتفه وعنوانه.

عبد الرازق خفير مدرسة الزراعة، حيث وقع الحادث كان ضمن الحاضرين. سأله الناس عما حدث. قال إنّ الحيوانات أتت سلوكًا غريبًا: الأبقار والجواميس أصابتها حالة هياج شديد. ركلت البوابات الحديدية الضخمة حتى كادت تخلعها وهي تخور. والكلاب الضالة ظلت تعوي دون انقطاع. أطلق عيارين من بندقيته القديمة

fb/mashro3pdf

فسكتت الحيوانات قليلا، ثم عادت سيرتها الأولى. أطفأ الراديو الذي صار عاجزًا عن سماعه، وخرج إلى مقهى الصايح، هربًا من ضوضائها لعلها تسكن بعد قليل. ترك البوابة مفتوحة على مصراعيها لأول مرة منذ شغل مكانه كحارس للمدرسة.

ضرب سامعوه كفًا بكف. بسملوا وحوقلوا، وقالوا إن عمر الفتى قد انتهى عند هذا الحد. وإنه يجب أن يموت بهذه الطريقة. وللـه تصاريف وحكم لا يعلمها غيره. أحد الخبثاء قال تعليقًا ظاهره الحكمة، وذكّر الحاضرين بقصة الغلام الذي قتله الخضر في سورة الكهف. ثم هز رأسه مضيفا: "سبحان اللـه!" فأمّن خلفه المستمعون وهزوا رؤوسهم، دون أن يفهموا مقصده.

بدأ الشيخ خيري تلاوة ربع جديد، قال البسملة من طبقة القرار، فالتزمـت الغالبية الصمت، وإن ظلت بعض الحـوارات الجانبية تدور بصوت خفيض.

[لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ]

قالها باقتدار الداخل على ما يعرف جيدًا. يعرف أن سورة يوسف مفضلة لدى الجميع. لم يبدأ بها مباشرة. انتظر حتى امتلأ السرادق تمامًا وأخذ يفرض سيطرته على آذان الحاضرين.

فجأة رأى كل الحاضرين "مرزوق جودة" عضو مجلس الشعب

fb/mashro3pdf

قادمًا إلى السرادق وسط رجاله، مرتديًا بذلة داكنة دون رابطة عنق. سلّم على الواقفين، وشدّ على يد رضا بحرارة. سبقه أحد رجاله إلى الكراسي المخصصة لكبار الزوار. تشتت انتباه الحاضرين. تابعوه بأنظارهم متعجبين من مجيئه. جاءته أقداح القهوة المُحلاة وزجاجة مياه معدنية. حياه الأقربون، وخاض الجميع في سيرته، وفي ثروته التي تزداد عامًا بعد عام.

أحد العارفين المخضرمين قال إنه قد جاء ليزيد من شعبيته في الدائرة. رغم أنه مرشح الحزب ونجاحه مضمون. ثم أطلعهم على ما لا يعرفون. فالحاج "مرزوق" كان نقيًا منحازًا للفقراء وقد فعل من أجلهم الكثير في أول عهده بالسياسة. وبعد نجاحه في المجلس كمرشح مستقل كان من المعترضين على اتفاقية كامب ديفيد فخسر في الدورة التالية رغم كمّ الأصوات التي نالها.

ثم أردف الراوي المخضرم إمعانًا في جذب انتباه السامعين. إن الرئيس "السادات" طلبه بالاسم مع وفد كان ذاهبًا لمقابلته لغرض ما. وأثناء الحوار، والسادات واضعًا ساقًا فوق أخرى وجه الكلام إليه، فجاء معوجًا من أثر الغليون، وقال: "انت ابن بلد يا مرزوق. ينفع تعترض على كلام أبوك يا مرزوق؟" ولم يوجه إليه الرئيس أي حديث مرة أخرى خلال اللقاء. وأثناء مصافحته للرئيس قبل أن يغادر، وعده مرزوق أن يسير على خطاه ووفق تعليماته، فانضم

fb/mashro3pdf

إلى الحزب الحاكم. ومن وقتها لم يخسر دورة واحدة ولم يعد يلتفت إلى ما يريده الناس إلا قليلًا.

أنهى الرجل كلامه فمصمص السامعون شفاههم وردد البعض: "أرزاق، ســبحان العاطي!" والأغلبية الصامتة نظرت إليه بإكبار وإجــلال. فقد جلــس الرجل مــع الرئيس المؤمن بطــل الحرب والسلام.

بعد الدخول المفاجئ لعضو مجلس الشعب، أدرك الشيخ خيري أنه فقد سيطرته تمامًا على آذان المستمعين. راح يفتح عينيه الضيقتين من حين لآخر كي يتحقق من ردود أفعال الجالسين. حاول جاهدًا أن يعيدهم إليه، فيجود آية بعد أخرى. وبعد حين خف وقع المفاجأة فانتبه الناس أن القرآن يُتلى.

[وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ]

أمسك الشيخ خيري بزمام النغمة، فأعادها مرات. يجوِّد واثقًا مما يفعل. يصعد إلى الجواب بسهولة ويعود إلى القرار بحنكة ووعي.

[وجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ]

قالها لامعة براقة، وراح يكررها حتى تصايح الجالسون بصوت يعلو على صوت البطانة فاطمأنّ واسترسل.

fb/mashro3pdf

انفعل الإمام بالتلاوة. اهتز يمينًا ويسارًا. أخذ فنجان قهوة ثانٍ وأشعل سيجارة. سحب النفس الأول ببطء وأخرجه بقوة. ترقرق الدمع في عينيه وكاد يبكي، لكنه حبس دمعه خشية عيون الناس. نظر إلى رضا الواقف على باب السرادق والشيخ لم يزل يعيد: [فصبر جميل].

بعد أن وصل الجميع إلى أوج انتشائهم بالتلاوة، أنهى الشيخ الأرباع المتفق عليها. مهد للقفلة التي تطرب السامعين، ثم قال: [صدق اللـه العظيم] معلنًا نهاية السهرة.

قام إليه البعض يسلّمون ويتبرّكون. لملم مساعدوه أغراضهم، ثم خرجوا والشيخ أمامهم. سلموا على والد الفقيد وإخوته، ثم ذهبوا ليركبوا السيارة الكبيرة التي تنتظرهم.

انفض السرادق. غيّر أهل الفقيد مكانهم ليكونوا على يمين الخارجين. تأكد الإمام وزكريا من أن رضا لا يحتاج شيئًا. ودّعاه ومضى كل إلى بيته.

وقف بعض أهل الحي الخارجون من السرادق أمام محل الطوخي. يترحمون على الفقيد آسفين على حال الدنيا. سألت زوجة الطوخي كيف مات الولد؟. لم يجبها أحد بشكل مباشر. إذ انتشرت خلال ساعات الليل القليلة الماضية حكاية جديدة. كانت في الأصل الحكاية التي رواها عبد الرازق خفير المدرسة. لكنهم زادوا عليها حتى صارت هي القصة المعتمدة والحقيقة التي لا مراء فيها.

fb/mashro3pdf

قال أحدهم إنه سمع فلانًا يقول إن "هاني" دخل المدرسة إثر نداء من مردة الشياطين التي تسكنها. تلك الشياطين التي تظل تجوس كلما جنّ الليل ويعرف الجميع بوجودها. وقال آخر إنها ليست شياطين، بل هي روح أحد الأشقياء. قتله صديقه في المدرسة منذ سنين طويلة بعد مشاجرة بسبب القمار. وقال ثالث إنه سمع من أبيه أن هذه الأرض كانت ملكًا لباشا تركي كبير، كان كلما قتل أحدًا من موظفيه دفنه في مكانه.

تدخل الطوخي العجوز قائلًا إن أحد المشرفين في مؤسسة رعاية البنين قال له إنهم يسمعون أصواتًا غريبة وصراخًا يأتي منها ليلًا، صراخًا بشريًا لا خوار حيوانات. وعرف أيضًا أن عنابر المستجدين وعنابر العقاب في مؤسسة الأيتام في المكان الملاصق لسور المدرسة.

حكى الطوخي أن بعض اللصوص حاولوا سرقة الماشية منذ أعوام عدة. وقد رآهم الناس يقفزون من فوق السور ويركضون فزعين. ومن بعدها عينت إدارة المدرسة حارسًا على هذه البوابة لحماية الماشية من السرقة.

امتد الحكي حتى اشتد البرد. فّودعوا الرجل وامرأته وتفرقوا. طالبين من اللـه أن يحفظهم وأهلهم من كل سوء، داعين للفقيد ولموتاهم بالرحمة.

fb/mashro3pdf

انتهى الإمام من الأكل، وتربع على الأريكة. حملت "سحر" الأطباق، وجاءت أم فوزي بالشاي. قالت إن إحدى صديقاتها قابلتها في السوق صباح اليوم، وأخبرتها أن لها جارة تصدع بيتها من أثر الزلزال، والماء يتسرب من شقوق السقف. تريده أن يرمم لها البيت.

وفي اليوم التالي ذهب الإمام إلى أم زينب صديقة أمه. دعته للدخول، سلم على زوجها، وجلسوا يحتسون الشاي. قالت أم زينب إن جارتها "أم جمال" تصدع بيتها بعد الزلزال، وشقتها في الطابق الأخير. كانت المرأة العجوز تحكي وهي تضيف أكبر قدر من الحزن والتأثر كي تثير شفقة الإمام، فيرثي لحال الأرملة الفقيرة ويتهاون في أجره ولو قليلًا. والإمام يسمع ويهز رأسه.

- بس والنبي يا ابو سعد دي ست غلبانة

- ماتخافيش يا حاجة.. سيبيها للـه

fb/mashro3pdf

- ونعم باللـه

أراد الإمام أن يرحل سريعًا، فقال:

- هو البيت قريب؟

- آه.. ده في الشارع اللي ورانا... احط الطرحة واجي معاك

وضع الإمام كوب الشاي. سـلّم على زوجها الذي لم يقل كلمة واحـدة، وانتظرهـا خارجًا. قادته أم زينب في الشـوارع الضيقة الموحلة، المتفرعة من شـارع المدير. تسـير بحماس وسـرعة بخطواتها العرجاء قليلًا من أثر الروماتيزم.

اسـتاء الإمام من ثرثرتها وصوتها العالي. تشـير وتعلق على كل ما ترى. تحيي هذه وتسـأل عن أحوال تلك. ألقت السلام على الجالسـين على المقهى، وما إن ابتعدت حتى خاضت في سـيرة بعضهم. لتنهي كلامها فتقـول: "ملناش دعوة يا اخويا.. دع الملك للمالك".

دخلا شـارعًا ضيقًا موحـلًا. وقفت أمام بيـت قديم من أربعة طوابـق. دفعت البوابة الحديدية. أمسـكت بالدرابزين تتكئ عليه. صعدت بصعوبة تلهث. لم تتوقـف عن الكلام. طلبت من اللـه أن تجد المرأة في البيت، حتى لا يضيع تعبها سدى.

طرقت الباب ثلاثًا. وقفت مستندة إلى الحائط، تشكو من الأدوار

fb/mashro3pdf

العالية. ضربت الجرس بعصبية، فجاء من خلف الباب صوت بنت صغيرة تسأل من الطارق. "افتحي يا حنان" قالتها أم زينب بصوتها العالي.

انتحى الإمام جانبًا وابتعد عن الباب المفتوح. دخلت أم زينب، ونادت البنت على أمها. تبادلت المرأتان التحيات والقبلات. سمع الإمام أم زينب وهي تقول للأرملة يا دعاء. عرفت أنه بالخارج فدعته للدخول. دخل الإمام بقدمه اليمنى ناظرًا إلى الأرض. جلبت له البنت الصغيرة كرسيًا، فجلس يلتقط أنفاسه. جاءت دعاء بالشاي، ثم شرحت له ما جرى. أحب الإمام وجهها الحلو وصوتها العذب.

دعته كي يدخل ليرى الشروخ. لم يدخل خلفها مباشرة وتمهل برهة. أدخلته غرفة ضيقة سيئة الإضاءة. رأى امرأة مسنة ممددة على السرير. "لا مؤاخذة يا حاجة" قالها فلم يجد ردًا. شعر بالحرج، فقالت دعاء إن أم زوجها لا تسمع، وهي في رقدتها هذه منذ زمن طويل، لا تتحرك ولا تسمع ولا تتكلم.

أشارت إلى الشرخ الممتد من السقف حتى الجدار. يتسرب الماء أحيانًا وينزل على المرأة النائمة ذات الجسد الضامر. خرجا من الغرفة إلى دورة المياه. ارتسمت على وجه الإمام علامات الامتعاض من حالة الجدران السيئة. وفي النهاية دخلا المطبخ، فلم يكن أفضل حالًا.

fb/mashro3pdf

انتهت المعاينة. خرج الإمام إلى الصالة، حيث جلست أم زينب متوترة متحفزة كعادتها، تشـــرب الشـــاي. وبعـــد حين من الكلام والمفاوضـــات، تم الاتفاق، ورحل الإمام ســـريعًا هربًا من ثرثرة المرأة العجوز.

fb/mashro3pdf

استيقظ محمد حسين من نومه القلق على صوت انغلاق باب الشقة. ظل ممددًا على السرير يسمع خطوات سناء نازلةً الدرج، وارتطام الحقيبة الثقيلة بالدرابزين وبدرجات السلم.

توقع رحيلها الذي بات وشيكًا منذ فترة. الزلزال ووفاة هاني ابن جاره أخرّاها أيامًا معدودة. انتظرت حتى انتهت أيام الحداد الثلاثة. أنزلت الحقيبة الثقيلة من فوق الدولاب. أزالت عنها الأتربة وتركتها مفتوحة. حينها تأكد محمد من اقتراب موعد الرحيل. لكنه لم يقل لها شيئًا. فقد أدرك أنها لن تستطيع أن تتحمل شكوكه بعد الآن. حاول أن يكبح جماح نفسه فلم يستطع. كل شيء يشي بخيانتها التي لم تحدث بعد.

طيلة الأيام التي سبقت رحيلها لم يتبادلا كلمة واحدة، ولم يختل إيقاعهما كذلك. تقوم سناء بواجباتها وتشاهد التلفاز وتنام. وهو يذهب إلى المدرسة ويعود، ليجلس وحيدًا في غرفة المكتب.

fb/mashro3pdf

سمع صرير البوابة الحديدية. تمنى ألا يراها أحد من الجيران وفي يدها الحقيبة الكبيرة. تمنى أن يترفق بها البرد. ولما اختفى وقع خطواتها تمامًا، ظل كما هو يفكر في الآتي، وفي أيامه الطويلة من دونها. في إجراءات الطلاق، وفي سؤال الناس عن سبب الطلاق.

نظر إلى ساعة الحائط. فات ميعاد الذهاب إلى المدرسة. أحس بالجوع. قام إلى المطبخ يعد طعام الإفطار، لعل الوقت الثقيل يمر.

وضع بيضتين في وعاء مليء بالماء وتركه على النار. هرس حبات الفول في طبق. تطلع إلى الرفوف بحثًا عن أوعية الملح والبهارات. كانت سناء قد كتبت على كل عبوة ما تحويه بخط يدها، فلما رآه بكى. حاول أن يستعصم، تحول بكاؤه إلى نشيج مر. ارتعشت يده اليمنى، سقط وعاء الفلفل الأسود المفتوح على رخامة المطبخ، وتناثر ما فيه. التهبت عيناه وأنفه من أثر الفلفل، فانشغل عن البكاء بالألم الحارق. فتح الصنبور وغسل وجهه وعينيه. أطفأ النار فكف الماء عن الغليان. خرج من المطبخ وجلس على الكرسي المواجه للتلفاز.

جلس حينًا حتى هدأ. غمرت البرودة الآتية من الأرض قدميه. سمع زقزقة العصفورين في الشرفة. حمل لهما الطعام والماء، وما إن فتح باب الشرفة حتى تبعثرت العصافير الواقفة على سلك

fb/mashro3pdf

الكهرباء وطارت، دون أن تتوقف عن الزقزقة والمناجاة.

لم يجد أحدًا في الشارع. لم يجد أحدًا في الشرفات والشبابيك. سمع صوت الزيت المغلي قادمًا من محل أم فوزي. أغلق باب الشرفة ودخل. وتلقائيًا، وضع الكرسي على طرف السجادة الملتوي. كانت سناء تتعثر فيه كلما خرجت من الشرفة.

دخل غرفة المكتب وأغلق بابها، رغم أنه بمفرده. وضع السيمفونية الخامسة لبيتهوفن. صبّ كأسًا من البراندي. فتح الشباك المطل على الشارع الخلفي، وجلس منصتًا.

سأل نفسه، كيف أقام بيتهوفن هذه السيمفونية الهائلة على جملة قصيرة بسيطة. قسم الجملة وقطعها ولعبها أكثر من مرة بطرق مختلفة. جملة الكمنجات في البداية تشعره بالخوف والرهبة. وعندما اشتعلت الكمنجات وصارت أكثر بريقًا - كما ينبغي لها أن تكون- خطر لمحمد وهو في غمرة الهذيان، أن موسيقى بيتهوفن دائما تحمل داخلها تفاؤلًا خفيًا رغم كآبتها. لكنه لا يعرف مصدر تفاؤله هذا ولا كيف ضمنه في مقطوعاته كلها. جملة الأوبوا تؤكد له صدق حدسه.

اشتد الهواء البارد، فأغلق الشباك. شعر بألم في بطنه الخاوية التي ألهبها البراندي. نظر عبر الزجاج إلى الشارع الذي دبت فيه الحركة، وإلى السماء الرمادية المنذرة بمطر ثقيل.

fb/mashro3pdf

دار في الغرفة يمينًا ويسارًا كي يتناسى ألم معدته. كان يعرف بمجيء هذا اليوم. كان يعرف أنها سترحل عما قريب. ظن أنه سوف ينهار برحيلها، وسوف يتمسك بها ويبكي ويرجوها ألا ترحل. فكر أن يستعطفها مرارًا لكنه لم يستطع. يشعر الآن أنه يستطيع أن يعيش وحيدًا. لم ينهر، فقط يؤلمه الفقد. يؤلمه أن يعيش مفردًا. فقط عليه أن يقاوم وحدته بالموسيقى والبراندي. ثم أدرك أنه ربما كان أقوى مما يظن.

تآلفات الكمان والبيانو أضافت لنشوته نشوة أخرى. جاءه خاطر فجائي سرّهُ. يستطيع أن يعيش وحيدًا دون امرأة تكشف عاهته. لطالما كره أن يرى سناء محزونة بسبب عجزه وشكه. والآن تغمره الغبطة، لأنه سيعيش وحيدًا. عليه فقط أن يتغلب على وحدته، وأن يتفادى النظر إلى الساعة.

fb/mashro3pdf

فتحت دعاء الباب، وأجلست الإمام في غرفة الصالون. شرد في الرسومات على قماش الصالون الأحمر القديم. رأى صورة في برواز خشبي لرجل أسمر بشارب ضخم، فهم تلقائيًا أنها صورة زوجها الراحل.

جاءت دعاء بصينية عليها بعض الشطائر والشاي. رفض الإمام أن يأكل واكتفى بالشاي. استأذنها في إشعال سيجارة. دخنها مع الشاي متوترًا. جلست دعاء قبالته مثبتة عينيها في الأرض. تفرس في ملامحها قليلًا من بين سحائب الدخان. أحب جمالها الهادئ الريفي، وقدّر أن ملابسها الفضفاضة تخفي تحتها جسدًا لدنًا تنشب فيه الرغبة مخالبها.

كره الإمام هذا الصمت الثقيل، فابتدأ بالكلام على غير عادته. قال إنه سوف ينتهي في أسرع وقت ممكن، حتى يعفيها والأولاد والسيدة المسنة المريضة من مشقة وجوده، وكي تنتهي الفوضى

fb/mashro3pdf

في الشقة سريعًا. هزت رأسها وابتسمت، ودمدمت خجلة بكلمات لم يتبينها جيدًا. استطرد وقال إنه سوف يبدأ من الغرفة أولًا، حتى يوقف تسريب المياه. فردت إنها استعدت مسبقًا وجهزت الغرفة، لكنها لم تستطع حمل المرأة العجوز الضامرة. قالتها مرتبكة كعادتها كلما تكلمت. أشفق الإمام وقام كي ينقل المرأة المسنة من مكانها إلى الغرفة الأخرى.

فتحت دعاء شباك الغرفة على مصراعيه. انتبه الإمام إلى تنفسها شديد البطء. حملها وهو خائف أن تتكسر عظامها بين يديه، ثم وضعها بحرص على السرير في الغرفة الأخرى.

جاءته دعاء بالخرطوم الطويل الذي طلبه سابقًا. ثبته في صنبور الحمام ومده إلى الخارج. عرضت دعاء أن تعاونه. فقال لها باسمًا أن تنهي ما كانت تفعله وأن تعدّه غير موجود، فسوف يفعل كل شيء وحده.

خلط الإمام الرمل بالإسمنت وأضاف الماء. وقف على السلم الخشبي حتى طالت يداه السقف المشروخ. حاول قدر الإمكان ألا يتناثر الخليط على محتويات الغرفة. ورويدًا رويدًا اختفى الشرخ تحت طبقات الإسمنت. ولما انتهى صعد إلى السطح، وضع ما تبقى من خليط الإسمنت والرمل على الجزء المقابل للشرخ من السطح. وتمنى أن يتوقف المطر عدة أيام حتى يجف.

fb/mashro3pdf

أذن الظهر فجلس الإمام على درجات السلم مشعلًا سيجارة. انتبهت بعد حين لجلوسه على درجات السلم الباردة. دعته للدخول فرفض. قال إنه انتهى، وسيرحل الآن. وسوف يأتي غدًا في ذات الموعد.

بعدما انتهى الإمام من ترميم جدران الغرفة والمطبخ، وقف في الحمام، ونادى دعاء. قال إن حالة الجدران سيئة، وتشبعها بالرطوبة سوف يفسد كل ما سيفعله.

- طب والعمل؟

- ملهاش حل.. لازم نفوّر الحمام كله

- بس ده هيتكلف كتير

- هنحاول نلمها على قد ما نقدر. المهم نعمل حاجة نضيفة

- خلاص اللي تشوفه

بعد أيام طرق بابها، ومعه جمعة البلاط صديقه القديم. وقف جمعة يجيل النظر في جدران الحمام الضيق المتهالكة. ارتسمت على وجهه علامات الامتعاض. أخرج متر القياس الخشبي. حدد المقاسات. وساعده الإمام ودوّن خلفه ما يقول.

وقفا أمام باب الشقة. أعطاه الإمام سيجارة. سحب نفسًا عميقًا،

fb/mashro3pdf

وعدل وضع نظارته التي تجعل عينيه أوسع. بادره الإمام بالكلام وسأله:

- قلت إيه يا ابو حسام؟

- قلت لا إله إلا اللـه

- سيدنا محمد رسول اللـه.. ها؟

- الحمام بايش.. وهياخد شغل كتير

- عايزين نلم ايدنا يا اسطى

- يعني انت عشان تلم ايدك تيجي على أجرتي؟

- يا جمعة انا هاديك 3 جنيه في المتر. وافتكر شقة الباشا اللي أكلتك من وراه الشهد

صمـــت جمعة يفكر. رشـــف من كوب الشـــاي بصوت عالٍ، واستطرد قائلا:

- خلاص اتفقنا.. وهاجيب معايا صنايعي

- لأ.. مفيش صنايعي.. أنا هابقى معاك

- كمان؟!! ماشي يا ابو سعد.. لما تجهز الحاجة قوللي

- خلاص اتفقنا

fb/mashro3pdf

رحل جمعة، ودخل الإمام إلى دعاء. سألها إن كانت قد ارتضت ما تم بينه وبين صديقه فشكرته. أعطاها ورقة المقاسات كي تحتفظ بها. قال لها إن أحد أصدقائه يعمل في معرض للسيراميك في شارع بورسعيد. فلتذهب إليه وسوف يقوم بعمل اللازم. شكرته، وارتسمت على شفتيها ابتسامة قلقة. فهم الإمام ما أرادت قوله، فعرض عليها الذهاب معا.

أطعمت دعاء الصغيرين، وأم زوجها الراقدة على الدوام، ثم نامت من فرط التعب. رأت نفسها جالسة في حجر أبيها الراحل، مستندة بظهرها على بطنه الضخمة. وإخوانها جالسون حول أبيها، وأمها جلست شاردة. أطعمها أبوها اليوسفي، وهو يقص عليهم قصص النداهة والعفاريت، فيرتعب الأطفال من هبّة الريح، واحتكاك أوراق شجرة الجميز، فيقهقه الأب وترتج بطنه العالية كلما ارتعبوا.

هبت الريح شديدة فجأة. دخل في عينيها التراب. تألمت، وفركت عينيها حتى دمعت. رأت نفسها فجأة في حضن الإمام. تعجبت من استسلامها له. استلقى فوقها على أريكة الصالون المذهب. تحسس جسدها ومص شفتيها، فاحتضنته. ولما همّ بها، سمعا صوت مزمار لبائع متجول ينادي على غزل البنات. فتوقف فجأة واتسعت عيناه دون سبب، وحينها استيقظت دعاء.

fb/mashro3pdf

ظلت ممددة على السرير وصدرها ضيق. نادت على ابنها كي يأتيها بالماء. تنفست بصعوبة. رمت البطانية الثقيلة من فوقها. قامت من السرير. رأت الولد والبنت جالسين في الصالة يشاهدان التلفاز. عادت إلى الغرفة، أخرجت ملابس جديدة، ودخلت تستحم.

تطهرتْ وفركت جسدها بقوة. كأنها تتخلص من أنفاس الإمام الذي فاجأها في الحلم. عضت على شفتها وكادت تبكي. لامت نفسها. توضأت وخرجت. أغلقت باب الغرفة عليها. فرشت سجادة الصلاة. أطالت السجود واستغفرت كثيرًا. بكت حتى هدها التعب فتمددت على الأرض.

وفي الموعد المتفق عليه، وصل الإمام أولًا. وقف في انتظارها أمام معرض السيراميك. أشعل سيجارة واستند إلى جدار. رآها آتية من بعيد. كانت تمشي عكس اتجاه الريح، فالتصق الخمار الرمادي الطويل بجسدها. رأى الإمام نهديها المكتنزين، ولما اقتربت أشاح بعينيه بعيدًا.

سأل الإمام عن صديقه فلم يجده. قال أحد زملائه إنه قد غيّر ميعاد ورديته. تجولا في أرجاء المعرض، والإمام يسير صامتًا، وتركها لتسأل عن كل ما تريد. ولما اختارت، اتفق الإمام مع البائع على كل شيء ورحلا.

أرادت دعاء أن ترحل سريعا. انتهت المهمة، وهي لم تعتد أن

fb/mashro3pdf

تسير مع رجل غريب في الشارع، لكنها لم تعرف لمَ ظلت سائرة جواره. انتبه الإمام إلى خطواتها المتوترة القصيرة. أشعل سيجارة فكادت يده تتجمد من البرد. ألقاها سريعًا ووضع يديه في جيب الجاكت.

سارا في اتجاه النيل. وكلما اقتربا منه زادت برودة الريح. وعند نهاية الشارع افترقا على موعد باللقاء. لم يقولا أكثر من كلمات الوداع القليلة.

وقف الإمام والنيل عن يمينه، ينظر إلى دعاء والريح تحرك خمارها الطويل. لم يرفع عينيه عنها حتى ابتعدت واختفت بين الجموع. رفّ قلبه لما تذكر عينيها وحركة شفتيها الورديتين أثناء الكلام.

حدثته نفسه بأشياء، وغمرته غبطة شديدة. عبرت سيارة مسرعة في الجهة المقابلة، فطبعت عجلاتها على الأرض، وكومت الوحل عاليًا جوار الرصيف.

fb/mashro3pdf

تفرق الجمع وابتعد الرفاق. لم يعرف أحمد متى كفوا عن اللعب وعن الذهاب إلى المدرسة معًا. كأنهم لا يريدون أن يتذكروا ما حدث، أو ربما حرضهم الأهل على ألا يفعلوا. يلتقون في الشارع والمدرسة لمامًا، يتبادلون كلمات قليلة ويرحل كل منهم إلى شأنه. ضاقت الأرض، وتذكر أحمد الدم النازف على الكفن. سقط هاني من أعلى السور ساعة الزلزال، وفرّ من كانوا معه.

وفي البيت، حلّ هدوء عميق، اختفى التوتر والمشاجرات شبه الدائمة. خففت أمه الحصار عنه كثيرًا. تقرّب منه أبوه، يسأله كصديق، ويتكلم معه ويحكي طويلًا. حكى عن أيام الحرب الطوال، وعن سنين قضاها في العراق، بعيدًا عن العائلة والجدة والبيت القديم.

فكّر أحمد في أن يطلب بناء عش الحمام من جديد، لكنه أحس أن الوقت مرّ. طالت وحدته فاستمرأها. يصعد إلى سطح البيت كل يوم، بعد عودته من المدرسة، يتلمس شمس العصر، والهواء

fb/mashro3pdf

المحمّل بروائح حلوة لا يعرفها تثير فيه شيئًا ما.

وجد على السطح عدة أصص مليئة بالطين. جاء بها أبوه كي يزرعها بالريحان والياسمين، لكنه نسيها في غمرة انشغاله. لم يحب أحمد شكل التراب الأسود اليابس، صب عليه كثيرًا من الماء حتى خرج من مسام الأصيص. غمس يده فخرجت سوداء، غمسها مرة أخرى وأخذ حفنة في كفه، صنع كرات متجانسة من الطين قذف بها البيت الملاصق في الشارع الخلفي. التصقت بعض الكرات، وسقطت الأخرى، تاركةً مكانها دوائر سوداء على الجدار الأبيض.

تغيّر الحال، وصار أحمد يذهب إلى المدرسة بالسيارة مع أبيه. رأى مروة واقفة على الناصية في انتظار أتوبيس المدرسة، تلاقت عيونهما فأشاحت بوجهها بعيدًا.

وصل مبكرًا قبل بداية الطابور. جلس في الفصل وحيدًا. يلف المدرسة هدوء عميق. وضع الحقيبة على الأرض، وأحكم إغلاق الشبابيك. وقف ينظر عبر الزجاج، السيارات قليلة، والأسفلت مبلول، والبرد محيط بكل شيء.

تذكر حلم الليلة الماضية. رأى هاني يطير في فناء المدرسة، يرفرف وقد نبت له جناحان. يطير فَرِحا فوق رؤوسهم جميعا، ويشير إليه الأولاد ضاحكين ومدرّسة بدينة لم يتبين وجهها.

fb/mashro3pdf

أراد أن يدون الرؤيا قبل أن ينسى. همّ أن يُخرِج الكشكول والقلم قبل أن يأتي زملاؤه، فرأى الشمس قد سطعت، وارتمت على البيوت القديمة، كأنها تسند جدرانها المتعبة، التي نخرتها الرطوبة وأثقلها مرور الزمن.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

المؤلف في سطور

مصطفى عبد ربه

- شاعر وروائي مصري.

- وُلد في مدينة المنصورة عام 1985، وتخرج في كلية الآداب.

صدر له:

- "إذا مسّنا الغيمُ"، شعر، 2012.

البريد الإلكتروني:

donkejota@gmail.com

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf